كتاب الشباب

سارق الأطفال



8

B

قصص

أحمد عبدالسلام البقالي

مكتبة العبيكان



سارق الأطفال

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓗ مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

سارق الأطفال . ـ الرياض .

. . . ص؛ . . . سم . ـ (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك ١ ـ ٢٢٩ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٨١٣،٠٨٧٢ ١٧/٠١٣٥

ردمك ١ ـ ٢٢٩ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠١٣٥

الطبعة الأولى ١٩٩٦م

الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

1

صَاحَ صَابِرٌ مُوَدِّعًا زُمَلَاءَهُ :

- إِلَى اللِّقَاءِ !

وانْفَصَلَ عَنْهُمْ مُنْزَلِقًا فَوْقَ لَوْحِهِ الدَّارِجِ (سْكَيْت بُورْدْ) ، ودَخَلَ زُقاقًا خالِيًا .

كَانُوا جَمِيعًا يَحْمِلُونَ مَحَافِظَهُمُ الجِلْدِيَّةَ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، وَيَتَسَابَقُونَ عَلَى أَلْواحِهِم الدارِجَةِ بَعْدَ مُغَادَرَةِ المَدْرَسَةِ مَسَاءً . وكانوا جَميعًا بَيْنَ الثَامِنَةِ والعاشِرَةِ مِنَ العُمُر.

وانْطَلَقَ صَابِرٌ يَتَدَرَّبُ عَلَى القَفْزِ وَالْوُقُوفِ المُفاجِئِ والانْعراجِ الحَادِّ بِلَوْحِهِ في المَمَرِّ الخَالي المُؤَدِّي إِلَى مَنزِلِه . كَانَ دائمًا يَخْتَصِرُ طَرِيقَهُ إِلَى دَارِه عَبْرَ المَمَرّ.

وفُوجِئَ بسيارةٍ صغيرةٍ سَوْدَاءَ تَسُدُّ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ الضَّيِّقَ ، فَتَوَقَّفَ رَافِعًا مُقَدِّمَةَ اللَّوْحِ ، وأمسَكَهُ بِيدِه وَرَاحَ يَنْظُرُ إِلَى دَاخِلِ السَّيَّارَةِ بِفُضُولٍ .

كَـانَ يَجْلِسُ وَرَاءَ عَجَلَـةِ القِيَـادَةِ رَجُلٌ رَثُّ الثِّيَـابِ، عَلَيـه مَظْهَرُ البَدَاوَةِ، لَهُ لِحْيَةٌ وعِمَامَةٌ، وعَلَى عَيْنَيْهِ نَظَّارَةٌ بَالِيَة.

لَمْ يُثِرْ مَظْهَرُ الرَّجُلِ البَدَوِيِّ فُضولَ صَـابِرٍ بِقَدْرِ مَا أَثَارَهُ مَنْظَرُ الحَيَوانِ الـذي كانَ في حِضْنِه. واتَّسَعَتْ عَيْنَـا صَابر وَهُـوَ يَنْظُرُ إلى العنـزِ البَيْضَـاءِ الصَّغِيرَةِ السِّنِّ والـوَزْنِ، وَهِيَ تَـرْضَعُ مِنْ رَضَّاعَةٍ في يَدِ الرجُل.

وَاقْتَرَبَ لينظُرَ إِلَيها مِنَ النافِذَةِ، فَابْتَسَمَ لَهُ الرَّجُلُ قَائِلاً:

- هَلْ أعْجَبَتْك؟

فَرَدَّ صَابرٌ لاهِثًا:

- آه! جِدًّا..!

ومَـدَّ يـدَهُ يَمْسَحُ عَلَى رَأْسِهَـا الصَّغِيرِ، وفَـرْوتِها النَّظِيفَـةِ اللاَّمِعَة.

وَسَأَل:

- مَاذَا سَتُسَمِّيها؟

فحرَّكَ الرَّجُلُ رَأْسَه:

– لا أَدْرِي مَـاذَا سَيُسَمِّيهَـا صَاحِبُهَـا ؛ فَقَـدْ جِئْتُ بِهَا لابْنِ شَرِيكِي. طَلَبَهـا مِنِّي أَبُوهُ، لِيُقَـدِّمَهَا لَـهُ هَـدِيَّةً بِمُنَـاسَبَةِ عِيـدِ مِيلاَدِه، أَوْ نَجَاحِهِ رُبَّمَا، لاَ أَدْرِي.

فَتَنَهَّدَ صَابرٌ في حَسْرَةٍ، وَقَال:

– مَا أَسْعَدَه!

فَقَالَ الرَّجُلُ:

– مَـا أَسْعَدَهُ إذا اسْتَطَعْتُ العُثُـورَ عَلَى مَنْزِلِـه! فَمُنْذُ الظُّهْـرِ وَأَنَا أَبْحَثُ عَنْ عُنْوانِهِ دُونَ جَدْوى.

ثُمَّ أَضَافَ مُسْتَدْرِكًا:

– لَعَلَّكَ، يَـا وَلَـدِي، تَسْتَطِيعُ مُسَاعَـدَتِي عَلَى العُثُـور عَلَى الدَّارِ. فَأَنَا لاَ أَعْرِفُ القِرَاءَة.

فَأَجَابَ صَابِرٌ مُتَحَمِّسًا لِلْمُسَاعَدَة:

– إِذَا اسْتَطَعْتُ. مَا عُنْوَانُه؟

فَأَخْرَجَ لَهُ الرَّجُلُ قِطْعَةَ وَرَقٍ بَالِيَةً كُتِبَ عَلَيْهَا:

الدُّكْتُور نُورُ الدِّينِ خَلِيل

طَبِيبٌ جَرَّاحٌ

12 ، زَنْقَـةُ أَصِيلَـة الرِّبَاط

وَارتَعَشَتْ يَدَا صَـابِرٍ وَهُـوَ يَقْرَأُ اسْمَ أَبِيـهِ وعُنْوَانَ مَنْـزِلِه . وَلَمْ يَتَمَالَكْ أنْ صَاحَ :

– إنَّهُ عُنْوَانُ مَنْزِلِنَا ! هَذَا اسْمُ أبِي !

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الوَرَقَةَ مِنْهُ وَقَدْ بَدَا عَلَى وَجْهِهِ الشَّكُّ ، وَقَالَ :

– أَحَقًّا مَا تَقُولُ ، يَـا وَلَـدِي ؛ أَمْ أَعْجَبَتْكَ العنـزُ، وتُرِيـدُ أَخذَهَا لِنَفْسِك؟

فصاحَ صَابِرٌ:

– واللهِ العَظِيمِ مَـا قُلْتُ لَكَ غَيْرَ الحَقِّ ! الدُّكْتُـورُ خَلِيلٌ أبِي ، وَأَنَا ابْنُه صَابِر.

فابْتَسَمَ الرَّجُلُ سَعِيدًا ، وَقَالَ :

– يا لَهَا مِـنْ مُصادفـةٍ غَرِيبَة ! لَـنْ يُصَدِّقَ وَالِـدُكَ هَذَا حِينَ نَحْكِيهِ لَهُ . تَعَالَ . تَعَالَ إذَنْ ، خُذْنِي إلى دَارِكُم .

وَمَـدَّ يـدَه فَفَتَحْ بـابَ السَّيَّـارَةِ عَلَى يَمِينِـهِ، فَـدَخَلَ صَـابِـرٌ بِسُرْعَـةٍ، ورَمَى بلَـوْحِهِ الـدَّارج إلَى الخَلْفِ، وَجَلَسَ يَنْظُـرُ إلى العنز الجَميلَة بِشَغَفٍ كَبِيرٍ!

وكَانَتِ العنزُ قَدْ شَرِبَتْ كُلَّ مَا كَانَ فِي الرَّضَّاعَةِ مِنْ حَلِيبٍ، فَرَفَعَهَا الرَّجُلُ مِنْ حِجْرِه، وَنَظَرَ إِلَى صَابِرٍ مُبْتَسِمًا، وسَأَلَه:

- هَلْ تُرِيدُ حَمْلَهَا حَتَّى نَصِلَ إِلَى الدَّار؟

فَحَرَّكَ صَـابِرٌ رَأْسَـه قَابِـلاً بِسُرُور. ومَدَّ يَدَيْـهِ فَأَمْسَكَ بِهَا مِنْ تَحْتِ بَطْنِهَا، كَمَا يُمْسِكُ بِتُحفَةٍ ثمينةٍ يَخْشَى أن تَنْكَسِر!

وخَرَجَ الرجلُ بالسيارةِ من المَمَرِّ، وسأَلَ صابرًا:

- أين نَتَوَجَّه؟

- إِلَى اليَسَارِ أولاً.. فَهَذَا شَارِعٌ ذُو اتِّجاهٍ واحد.

وَتَحَرَّكَ الـرَّجُلُ، وصَـابِـرٌ يَضُـمُّ العنزَ إِلَيْـه، لِيُحِسَّ بِـدِفْئِهَـا ونُعُومَتِهَا، ويُـرِيه الطَّرِيقَ حَتَّى حَـاذَت السَّيَّارةُ الشَّارعَ المُؤَدِّيَ إلى الـدارِ، فتَـوَقَّفَ الـرَّجُلُ، ووضعَ يَـدَهُ عَلَى جَبِينِه مُتَـذَكِّـرًا، وقال:

- يَا لِي مِنْ مُغَفَّل !

فَرَفَعَ صَابِرٌ عينيه عَنِ العنزِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ مُسْتَفْسِرًا ، فأَضَافَ الرَّجُلُ :

- أَوْصَانِي سيدِي نُورُ الدينِ ، والدُكَ ، أَنْ آتِيَهُ بِعَلَفٍ لِلْعنزِ ، ولَكِنِّي نَسِيتُ تَمَامًا . ظَنَنْتُ أَنَّ المَدِينَةَ مِثْلُ البَادِيَةِ . يتوافر فيها المَرْعَى فِي كُلِّ مَكَان .

وَسَأَلَ صَابِرٌ قَلِقًا على فِرَاقِ عنزِهِ :

- وَمَاذَا سَتَفْعَلُ الآنَ؟

- لاَ بدَّ أن أعودَ إلى المزرعةِ ، وَآتِيَ بالعَلفِ ، وإِلاَّ تَعَرَّضْتُ لِغَضَبِ أبيكَ . وَأَنْتَ تعرِفُ كيف يَصيحُ !

وَسَأَلَ صَابِرٌ خَائِفًا :

- هَلْ سَتَتْرُكُ العنزَ مَعي؟

فَنَظَرَ الرَّجُلُ إليه مُفَكِّرًا :

- فِي الحَقِيقَةِ ، يَا وَلَدِي ، أَبُوكَ كانَ يُرِيدُ أن تَكُونَ هَدِيَّتُهُ مُفَاجَأَةً لَك ، لِذَلِك يَجِبُ أن آخُذَهَا مَعي حَتَّى أعُودَ بِالْعَلفِ .

فَاسْتَعْطَفَهُ صَابر:

- أرْجُوكَ، أرْجُوكَ لاَ تَأخُذْهَا مِنِّي!

- وَلَكِنْ لاَ بُدَّ أن آتِيهَا بِالْعَلف وإلاَّ مَـاتَت المِسْكِينَةُ جُوعًا؛ فَالْحَلِيبُ وَحْدَه لاَ يَكْفِيها.

فَصَاحَ صَابِرٌ:

- أذْهَبُ مَعَك إذَنْ إلى المَزْرَعَة.

- أَلَنْ تَقْلَقَ عَلَيْكَ أمُّك؟

- لاَ، لَنْ تَقْلَقَ. كَثِيرًا مَـا أَتَـأَخَّـرُ فِي اللَّعِبِ مَعَ زُمَـلائِي في الشَّارِعِ بَعْدَ الْمَدْرَسَةِ.

وبَعْدَ تَرَدُّدٍ قالَ الرجُلُ:

- حَسَنًا. إذَنْ سَتَذْهَبُ مَعِي، وَسَوْفَ نَعُودُ بِسُرْعَة.

وانْحَـرَفَ بـالسيـارة نحَـو طـريقِ «أبي رقـراق» المُشْرِفِ عَلَى النَّهْرِ، وانْطَلَق مُتَـوجِّهًا إلى طَرِيقِ مكْنَـاس، عَبْرَ الجِسْرِ القَدِيمِ وفَخَّارى (الوَلْجَةِ) ثُمَّ طَرِيقِ الغَابَةِ المُزْدَوِجَة.

وَحِينَ اجْتَازَ مَدْخَلَ القاعِدَة الجَوِّيَّةِ أخَذَ يُسْرِعُ قَلِيلاً دُونَ أنْ يَتَجاوَزَ الحَدَّ القَانُـونِيَّ؛ فَقَدْ كَانَ حَرِيصًـا ألاَّ يَلْفِتَ نَظَرَ رِجَالِ الشرطة، أو يَتَعَرَّضَ لِتَوْقِيفِهِمْ لأيِّ سَبَب.

ومَا كَادَ يَجْتَازُ الطَّرِيقَ المُؤَدِّيَ إلى مَطَارِ (الرباط - سَلا) حَتَّى هَبَطَ قَلْبُهُ، وأخذَ يَدُقُّ بعُنْفٍ. فَقَـدْ رَأى فِي مِرْآتِهِ شرطيًّا يَمْتَطِي دَرَّاجَتَهُ النَّارِيَّةَ المُتَفَجِّرَةَ كَقُنْبُلَـةٍ عَلَى عَجَلاَتٍ! وَهُوَ يَلْبَسُ بَذْلَتَهُ الرَّمَـادِيَةَ الدَّاكِنَـةَ وَخوْذَتَـه الجِلْدِيَّةَ المُحَـاطَةَ بِشَرِيطٍ أَحْمَرَ، وعَلَى عَيْنَيْهِ نَظَّارَتُه الكَبِيرَةُ التي تَجْعَلُ مَنْظَرَهُ مُفْزِعًا وَكَأَنَّه رَجُلٌ آلي!

وَأحَسَّ البَـدَوِيُّ بِأَنَّهُ يَقْبِضُ بِقُـوةٍ عَلَى عَجَلَةِ القِيـادَةِ لِتَوتُّـرِ أعْصَابِهِ، وَقَدِ ابْتَلَّتْ يَدَاهُ وَجَبِينُهُ بِعَرَقٍ بَارد.

وَأَحَسَّ صَـابِـرٌ بِشَيْءٍ غَيْرِ عَادِي، فَـرَفَعَ وَجْهَـهُ البَـاسِمَ عَنِ العنزِ الصغيرةِ لِيَنْظُـرَ إلى السائقِ، فَـرآهُ يَنْظُرُ إلى المِرْآةِ، وَيَعَضُّ عَلَى لِسَـانِـه، فَـالْتَفَتَ إلى الخَلْفِ فـإذَا الشرطي يَسِيرُ خَلْفَ السَّيَّارَةِ مُبَاشَرَةً بِوَجْهٍ جَامِد.

وَنَظَر ثانيـةً إلى الرَّجُلِ البَدَوِيّ فَلاَحظَ شيئًا غـريبًا. كَانَتْ لِحْيَتُـه البَيْضَـاءُ تَسْقُطُ عَنْ وَجْهِــه بِفعْلِ العَـرَقِ، وَهُـوَ يُحَاوِلُ

إرْجَاعَهَـا إلَى مَكَانِهَا ، ويَحْدِجُ صَابرًا بعَيْنِـهِ اليُمنَى ، ثُمَّ يَعُودُ إلى النَّظَرِ إلَى الشرطي فِي المِرْآةِ في حَيْرةٍ شَديدة .

وَشَعَـرَ صَابـرٌ بالْخَوْفِ ، فَـوَضَعَ العنـزَ بَيْنَ سَاقَيْـه ، دُونَ أنْ يُحَوِّلَ بَصَرَهُ عن الرَّجُلِ المُرْتَبِكِ . وَلاَحَظَ هَـذَا حَرَكَتَه ، فَخَـاطَبَهُ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ :

- مَاذَا تَنْوِي أنْ تَفْعَل؟

فَسَأَلهُ صَابِرٌ خَائِفًا :

- مَنْ أنْت؟

- أنَا شَرِيكُ أبِيكَ ، كَمَا قُلْتُ لَك .

- وَلَكِنْ لِمَاذَا تَضَعُ على وجهِكَ هَذِهِ اللِّحْيَةَ التَّنَكُّرِيَّة؟

وَلَمْ يُجِبِ الـرَّجُلُ عَنْ سُـؤَالِـهِ ؛ فَقَدْ كَـانَ مَشْغُـولاً بـالشرطي خَلْفَهُ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى أنْ قال :

- سَأَشْرَحُ لَكَ فِيمَا بَعْـــد ، حِينَ يَـذْهَبُ هَـــذا الشرطي البغيض .

- وَلِمَاذَا تَخَافُ الشرطي؟

- لأنني نسيتُ جميعَ أوراقي في المزرعــةِ، وليسَ عنـدي مـا أعطِيهِ لأُسْكِتَه.

واقْتربَتِ السيـارةُ من مَـدْخل مــركـزِ الشبيبـةِ والـريـاضـةِ (بالمَعْمُـورَة)، فأضاء إشـارَةَ اليمينِ، وأبْطَأَ السيْرَ، وهـو يُرَاقِبُ بِعَصَبِيَّةٍ رَدَّ فِعْلِ الدركي.

وتنفَّسَ الصُّعَـدَاءَ حينَ انحرفَ الـرجلُ الآلي المُسَلَّحُ والمُغَطَّى بالأحْزِمَة الجِلْدِيَّةِ، بِحِصَـانِهِ الحَدِيدِيِّ الجبَّارَ، ليَتَفَادَى السيارةَ القَديمة، ويَنْطَلِقَ في طرِيقه كَصَارُوخٍ راعِدٍ...

وكان صـابِرٌ يتفـرَّجُ على كلِّ مـا يحدُثُ حولَـه دونَ أن يفكِّرَ. ولكنْ حـالَمَا اختفَى الشرطي أدركَ أنــهُ بَقِيَ وحـدَه مع رجلٍ لا يعرفُه، بعيدًا عن المدينةِ، والليلُ وشيكُ النزولِ.

وفي هذِهِ اللحظةِ تذكَّرَ نصـائِحَ والِدَيْهِ ألاَّ يُكَلِّم غَريبًا، وألاَّ يَركَبَ سيارةَ أحدٍ لا يعـرفُه لأيِّ سببٍ من الأسباب، وألاّ يأخذَ أيَّ شيء كـان من أيِّ واحِدٍ في الشـارِعِ، خصـوصًا الحلـوى أو أي شيء يُؤكَلُ. ودَقَّ قلبُه بسرُعَـةٍ، وأحسَّ بالحرارَة في وجهِه، وبقطـراتِ العَـرَقِ تَتَجَمَّعُ فـوقَ جبينه، وتحتَ إبطَيْـهِ. وعقَـدَ

العزمَ على الفِـرَارِ من هـذا الرجل الـذي لا بدَّ أن يكـونَ سارقَ أطفال!

ولكن كيف؟ كانَ الرجلُ الغريبُ قد عادَ بالسيارةِ إلى طريقِ (مكناسَ) بعـدَ اختفاءِ الشرطي، ومـدَّ يَده فَنَزَع اللحيـة كلَّها، وأخرجَ مِنْدِيلاً مُلَوَّنـا كبيرًا من جَيبِهِ، وأخذَ يمسحُ به وجهَهُ من المَساحِيقِ التي كانت تُظْهِرُهُ رجُلاً مُسِنًّا. ونزعَ العِمامَةَ عن رأسِه ورماهـا إلى الوراء، فإذا بشَعرٍ أسـودَ كثيفٍ ممشوطٍ إلى الخلْفِ، فمَسَحَه بيدٍ ناعِمَة، ونظرَ إلى صـابرٍ وغَمَزَه، وابتسمَ له ابتسامةً لمْ يدْرِ كيفَ يُفَسِّرها. وبدا لَهُ أصغَرَ كثيرًا مِمَّا كان.

وزاد خوفُ صـابرٍ، وتـأكد عَزْمُـه على الهُرُوبِ بأيَّـةِ وَسِيلة. وأخَـذَ يَتَحَيَّنُ الفرصـةَ، بدأ ينظـرُ إلى الوراءِ، لعلَّـهُ يرى سيـارةً قادمة.

وَحَانَتِ الفرصـةُ حين ظهرتْ شاحنةٌ ضخمـةٌ آتيةٌ أمامَهُم، فأمسكَ صابـرُ بِمِقْبَضِ الباب، وفتحـه، وهم بالارتماء. ولكنَّ قبضةَ صـاحبِهِ انْطَبَقَتْ على عُنُقِـهِ بشدَّةٍ حتى كـادت تَقْصِفُه! فأعـادَتْهُ إلى مكـانِه. ومـرَّتِ الشاحنـةُ مُطْلِقَةً صرَاخَ احْتِجَاجٍ

عالٍ من نفيرِها على السيارةِ التي خَرَجَتْ عن طرِيقِها ، وكادت تصطَدِمُ بها أثناءَ مُحَاوَلَةِ الهُروبِ .

وانحرفَ الرجلُ بالسيارةِ يمينًا ، فدخلَ الغابةَ ، وهو يراقِبُ الشاحنَةَ التي كان سائِقُها ما يزالُ غاضِبًا يفكِّرُ في التوقُّفِ والنزولِ لتأدِيبِه .

واغْتَنَمَ صابرٌ فرصةَ بُطْءِ السيارةِ ، وانْشِغَالِ السائِقِ بالشاحنة ، ففتحَ البابَ ، وقَفَزَ من السيارةِ هارِبًا نحوَ الأشجارِ الكثيفة .

ولم يَنْتَبِهْ إليهِ خاطِفُهُ حتى كان بينَ الأشجارِ ، فانطلقَ يَعْدُو خَلْفَه بخطواتٍ واسعةٍ سريعة .

واختفى صابِرٌ عن عينيه بينَ الأشجارِ والأحْرَاشِ المُتَشَابِكَة ، فوقف الرجُلُ يُنصِتُ إلى وَقْعِ أقدامِه .

وانطلق صابرٌ يجري بخطواتٍ خفيفةٍ على أحدِ المَمَرَّاتِ الضيِّقَةِ مُتَجَنِّبًا الأوراقَ اليابسةَ والأعوادَ الجافَّةَ ، حتى لا يسمَعَهُ مطارِدُه .

وبعدَ مدَّةٍ من العَدْوِ السريعِ وقف يستريحُ ويُنْصِتُ إلى وَقْعِ أقدامِ مُطارِدِه. وكان قلبُـه يَنْبضُ في أذنِهِ، فلم يكنْ يدري هلْ من الخَوْفِ أم من الجَرْيِ. ووَدَّ لـو استطـاعَ إسْكَـاتَ نَبَضَـاتِـه ليستطيعَ الإنْصَاتَ إلى ما يجري حولَه!

وَوقَفَ خلفَ شجـرةٍ ضَخْمـةٍ يُـراقِبُ جميعَ الاتِّجاهـاتِ والمَمَـرَّات المُتَشَـابِكـةِ بعينينِ واسعتينِ، ويحاوِلُ اختراقَ عَتَمَـةِ الغَسَقِ التي بدأتْ تنزِلُ على الغابةِ.

ووقفَ الرجـلُ وسطَ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ يَتَفَرَّعُ في جميـعِ الاتجاهاتِ حـائرًا لا يـدري أيَّ اتجاهٍ يأخـذُ. وأحاطَ فَمَـهُ بِكَفَّيْـهِ في شِبْـهِ بُوقٍ، وأخذَ يُنادي:

– صـابرُ! صـابـرُ! ارجعْ يـا بُني... إنها مجرَّدُ نُكْتَةٍ. تعـالَ نرجعُ إلى دارِكم قبلَ نُزُولِ الظلام!

ثم خَطَا بِضْعَ خطواتٍ إلى الأمامِ، وأعادَ النداء:

– صـابــر. لا تَبْتَعِـدْ كثيرًا، فسـوفَ تَتِيـهُ وتَضِلُّ طـريقَ العَودة... الغابةُ خطِرَةٌ في هذِه الساعة!

وسمِعَ صابرٌ صوتَ الرجلِ يقتربُ نحوَه، فأطْلَقَ ساقَيْهِ للريح في الاتجاه المُعَاكِس. وبعدَ بِضْعِ دقائق من الجري وقفَ يَلْهَثُ ويستَريح ويُنْصِت.

وفوجئ بالظلام ينزلُ سريعًا في قلْبِ الغابةِ الصامِتَةِ. وهدأ خَفَقَانُ قلبه وَخَفَّتْ سرعةُ تنفُّسِهِ، فبدأت أصواتُ الغابةِ الغريبةُ تَتَرامى إليه. وسمِعَ ما يُشْبِهُ وَقْعَ الأقدامِ خلْفَه فالْتَفَتَ بِسرعةٍ، وصدرتْ عنهُ شَهْقَةٌ غير إراديةٍ، ولكنَّه لَمْ يَرَ شيئًا... وترامَتْ إليهِ أصْواتُ الحَيَوَانَاتِ الصغيرةِ كالسناجبِ والجُرْذَانِ والفِيرَانِ والسَّحَالِي والسَّلاَحِفِ والخَنَافِسِ والطيورِ المُعَشِّشة في الأشجار. وأدرك، رَغْمَ نزولِ الليل، أنَّ الغابَةَ كانت تَنْبُض بالحياةِ من حَوْلِه.

ودَاخَلَهُ خوفٌ من نوعٍ آخر. تَذكَّرَ ما قَرأهُ وما رآهُ في السينما والتليفزيون عن الحيواناتِ المفترسةِ التي تَعُجُّ بها الغاباتُ، والتي تَخْرُجُ للبحث عن طعامِها ليلاً، مثل السِّباع والضِّباع والنُّمورِ والفُهودِ والذِّئابِ والثَّعالِبِ والأفاعي السَّامَّةِ وغيرِها من الزواحِفِ الكريهة التي تَقْطنُ الغابَات.

ونَعبَتْ فوقَه بُـومَةٌ، فطار قلبُه فَزعا، وقَفَـزَ في مكانه وانطلقَ يعدو كالمجنونِ بلا هَدَف . . .

وحين أدَركَ أن مـا سمِعَه كـان مُجَرَّدَ صوتِ بُـومـةٍ وجد أنـه محاط بالأدغـالِ الكثيفةِ من كلِّ جـانبٍ، وأنه هـائمٌ على وجهِهِ تمامًا، لا يعرِف أينَ هو، ولا في أيِّ اتجاه يسير!

وجلسَ وظَهْـرُهُ إلى شجـرةٍ عجـوزٍ وأخــذَ يبكي. وخَفَّفَ البُكاءُ بعضَ ما كان به من تَوَتُّرِ أعْصَابٍ، فمسحَ عينيهِ، وفَكَّرَ أن البكاءَ لن يُجْدِيَـه، وأنه لا بـد أن يبحثَ لنفسِه عن مَخْرجٍ من هذِه المَتَاهَةِ.

2

وعلى حِفـاف الغـابـةِ وقف مُخْتَطِفُـهُ يَعَضُّ على لِسـانِـه في عَصَبِيَّةٍ، وينادي:

- صابر! هل تسمعُني؟

وبصوتٍ خـافِتٍ كان يسبـه بينَ أسنانِـه: «أشقاك الله، أيها الثعلبُ الصغير!» وكأنما ذكَّرهُ الثعلبُ بشيءٍ، فرفعَ عقيرتَـه مَرةً أُخرى، ونادى:

- صـابـر، اِسْمَـعْ، الغـابـةُ عـامـرةٌ بـالـذئابِ والثعـالبِ الجائعـة... إذا تَـوَغَّلت بداخِلِهـا فسـوفَ تفترسُك! إذا كنتَ تسمعُني فاخرجْ حالا، لنعـود إلى دار أبيك. لا بد أنهمْ يبحثُون عنك.

وقَلِقَ المُخْتَطِفُ لهذه الحقيقةِ. وردَّدَ بصوتٍ خفيض:

- أرجو ألاَّ يُـخبُروا الشُّرطَةَ قبل أن أتَّصِلَ بهم بالتليفون.

وصنَع من كَفَّيْـهِ بوقًـا، وأخـذَ يَعْوِي مُقَلِّـدًا الذئابَ بإتْقَـانٍ

كبيرا! ثُمَّ قال لنفسه: «إذا لم تُخْرِجْهُ هذه من هناك فلا بد أن قَلْبَه من حديد، أو أنه مَيِّت!».

وَعَضَّ على لِسانِه حين نَطَق بِكَلِمَةِ ميِّت، وخاطَبَ نفسه: «إذا ماتَ فلن أخْسرَ الفِدْيَةَ الكبيرةَ فقط، بل رُبَّمَا حتى حَياتي».

وعاد إلى السيارةِ فركِبَها ودخلَ الغابةَ، وسارَ بين الأشجارِ بِبُطْءٍ يستعملُ المُنَبِّهَ مرةً، والضوءَ العاليَ مرةً أُخرى، ويُخْرِجُ رأسَه من النافذةِ لينادي:

- صابر، لا تَخَفْ يا ولدي..! واللهِ العظيمِ لَن يُصيبَكَ منِّي أَيُّ سوء!

وتوغَّلَ في الغابةِ بعيدًا، حتى كادَ يَضِلُّ الطريقَ هو الآخر!

3

وفي دار صـابـر جَلَسَتْ أُمُّهُ (بلقيـس) تُسَامِـرُ صـديقتين، جاءَتَا لزيارتها بغرفةِ الجُلوسِ الفاخرة والمُضَاءَةِ بثُرَيَّا مِن البِلَّوْرِ.

وحين دخلتِ الخادمُ بإبريقِ الشايِ سألتها :

- هل عاد صابر؟

- لا، لم يَعُدْ بعد .

- هل عِنده اليومَ مُراجعة ؟

- لا. المراجعةُ يومَ الإثنين .

- فلماذا تأخر، إذن؟

- أحيانًا يتـأخر ليلعبَ مع أولادِ «الحَوْمَة»، أخذَ معـه لوحَهُ الدِارج إلى المدرسة .

وتَنهَّدتِ الأم غيرَ مُـرتاحةٍ لتصرفـاتِ ابنها، وصرفَتِ الخادِم بحركـةٍ من يدِها، وعادت تَبتَسِمُ ابتسـامَتَهَا السابقَة، لتـواجِه زائِرَتَيْهَا .

4

وفي الغابةِ لم يدْرِ صابرٌ كَمْ مَـرَّ عليه من الوقت وهو سائرٌ في خطٍّ يحاوِلُ أن يجعَلَـه مُستْقيمًا، حتى لا يَبقَى يـدورُ حولَ نفسِـه في دَائِرَةٍ مُغْلَقَة!

وتمنَّى لو أنه كان يحلُم . .

ولكنَّ سِربًـا كبيرًا من طيـورِ الكَـرَوانِ كان يطيرُ بعيـدًا فـوق رؤوسِ الأشجارِ مُسَبِّحًا بأصواتِهِ الليليةِ أيقظَهُ من حُلْمِه .

وتَذَكَّـرَ ما قـاله لـه معلِّمُه أثنـاءَ رحلتِه إلى هـذه الغابـةِ نفسها حولَ معرفةِ الاتجاهِ وَسطَ الغاباتِ . كان السرُّ يَكْمُنُ في طَحالِبَ تَنْبُتُ على جـانبِ الأشجـار المواجِهـةِ لإحْـدَى الجهـات الأربع ونسيَ هلْ للغربِ أو للشرقِ؟

واختلَطَ عليه الأمرُ، وَنَدِمَ عَلَى عدمِ الإصْغَاءِ لِمُعَلِّمِه .

وقرَّرَ طردَ الخوفِ من بالِه ، والمَسيرَ وَلْو على غيرِ هُدى ، لَعَلَّهُ يعثُرُ على شيءٍ ، على كـوخِ حارسٍ ، أو منزلِ فـلاَّح ، أو طرِيقِ سيارات . . .

طـريقُ السيارات إذا عثـر عليـه حُلَّتْ مُشْكلتُه . ولا بُـدَّ أن الطريقَ قريبٌ لأنه يَمُرُّ وَسطَ الغابَة .

وأَصَاخَ بسمعه إلى أصواتِ السيـاراتِ ، ودارَ في مكانِهِ دورةً كـاملةً ، وهـو يَمْسَحُ الأُفُقَ بعينيـه ؛ لعلَّـهُ يـرى أضواءَ سيـارةٍ عابرة .

ومشى في طريقٍ واسعٍ ، تخترقُـه عِدَّةُ طُرُقٍ من جميعِ الـزوايا . وأَحَسَّ بالجوعِ يُمَزِّقُ أحْشَاءَهُ ، وتذكَّـر أهلَه . لا بدَّ أن أباه وأمه يمـوتان قلقًـا عليـه ! هذا وقت عَشـائه ونـومه . لا بـد أن وقت بـرنَامجه المُفَضَّلِ بـالتليفـزيونِ قـد مَضَى . تَفَـرَّجَتْ عليه أختُـه وحدَها .

يا لَـهُ من مُغَفَّلٍ ! لماذا وَثِق بِهذا الرجلِ المَشْبُـوه؟! لماذا انْقَادَ إلى إغْرَاءِ العنز الصغيرةِ بتلكَ السهولة . يا لَهُ مِنْ بَليد!

وندِم على غفلتِه وسَذَاجَتِـه . وأقسَم إن خرجَ من هذه المِحْنَةِ ألاَّ يُكَلِّمَ غريبا أبدًا طُولَ حياته .

ومشى على غيرِ هُدى مُدَّةً من الوقتِ ، حتى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ ، وأرْهَقَهُ المَشْيُ والخوفُ والجوعُ واليأسُ !

5

وفي داره بـالمدينـــةِ وقفت أمُّـهُ تُـوَدِّعُ زَائِرَتَيْهَــا على البـاب، وانتظـرَتْ حتى رَكِبَتَـا سيـارَتَهُمَا وذَهَبَتَــا، فـدخلتْ تسألُ عن صابرٍ، فَأَجابتها الخادِمُ، وقد ظهرَ عليها القلق:

- سيدي صابرٌ لم يَعُدْ بعد.

فصاحتْ بلْقِيسُ غيرَ مُتَوَقِّعَةٍ جوابَها:

- كيف؟! لم يَعُدْ بالمرَّة، حتى لِـوَضْعِ قِمَطْرِ كُتُبِه وأخْذِ شيءٍ يأكلُهُ؟

- لا، يا سيدتي.

- وَلِمَ لَمْ تخبريني؟

- لقد أخبرتك.

فَحَدَجَتْها المرأةُ بنظرةٍ غاضِبَةٍ، وصاحت:

- أُخْرجِي. ابحَثي عنـهُ في جميعِ الأماكنِ التي يـذهبُ إليها في هذِه الساعةِ.

وخرجت الخادم تجري، وتبعتْها بلقيسُ إلى الشارعِ، وقد بدأ قلبُها يرتعش...

6

وفي الغَـابَـةِ وجـدَ صَـابـرٌ نفسَـه فَجْأةً في أرْضٍ خَـالِيَـةٍ من الأَشْجَار. . وَظَنَّ أنه وَصَلَ إلَى طَرَفِ الغَابةِ . . وَدَاعَبَهُ الأملُ في أن يكونَ هذَا طَـرفَ الغَابَةِ الذي دَخَلَ مِنْهُ ، فَهُوَ يَعْـرِفُه جَيِّدًا ، لِكَثْرَةِ مَا جَـاءَ للنُّزْهَةِ أَيَّامَ الجُمَعِ صُحْبَةَ أهْلِـهِ ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ السَّيَّـارَاتِ ، وَمِنْ (مَركـزِ مَوْلاَيَ رَشِيـدٍ لِلشَّبَابِ) . وَفي المَرْكَزِ حَارِسٌ يَعِيشُ مَعَ عَائِلته . وَرُبَّمَا عِنْدَه هاتفٌ .

وَلَكِنْ مَا كَادَ يَتَوَسَّطُ الرُّقْعَةَ العَارِيَةَ وَيَنْظُرُ أمَامَهُ حَتَّى أحَسَّ بِشَيْءٍ غَريبٍ يُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِب . . .

سَمِعَ أولاً حَفِيفَ أجْنِحَـةٍ لَيْسَتْ كالأجْنِحَـةِ العَادِيـة ، فَلَمْ يَكُنْ يَصْـدُرُ عنهـا صَوْتُ الـرِّيش . وَأَحَسَّ بـالهَوَاء يَتَحَـرَّكُ مِنْ حَـوْلِهِ . وَرَفَعَ عَيْنَيْـهِ فَإذَا سِرْبٌ هَائلٌ مِنَ الخَفَـافِيشِ المُتَوَحِّشَـةِ تُهَاجِمُهُ مِنْ كُلِّ جانب !

وَرَفَع ذِرَاعَيْـهِ لإبْعَادِهَا عنـهُ ، فأخذَتْ تُطْلِـقُ من حَنَاجِـرِها زَعيقًا مُنَفِّرًا . وَوَضعَ يـديهِ على وجهِه وِقَايَةً لعينيـه ، وأخذ ينظرُ

من خـلاَلِ أصابِعِـهِ، فإذا بـوجوهِ الـوطـاويطِ البَشِعَةِ الشبيهـةِ بـوجوهِ الفئـران تَقْتَرِبُ من وجهـه بسرعَـةِ الطـائراتِ النفاثَـةِ، فيُغْمِضُ عينيهِ مُتَوَقِّعا اصْطِدَامَهَـا بِه، ولكنها كانت تَنْحَرِفُ في آخِرِ لحظةٍ، زَاعِقَةً في وجهِـه من خلالِ أسنَانها الحادَّةِ. وانبطحَ على الأرض ليتفـاداها، ومـدَّ يـدَه يبحثُ حَـوالَيْه عن عَصًـا أو غُصْنٍ يدافع به عن نفسهِ، إذا قرَّرتِ الخفافيشُ الهجومَ عليه!

وفجأةً وكما ظهـرتْ تلك الطيـور الليليـةُ ذاتُ الأَجْنِحَـةِ الجِلْدِيةِ اخْتَفَتْ، وابْتَلَعَهَا ظـلامُ الليلِ الحالكُ. وعادتِ الغابةُ إلى هُدوئِها المعهود.

7

وفي عيـادةِ الـدكتـورِ نـور الـدينِ خليل، رنَّ جـرسُ الهاتف مَرَّةً، فتركَهُ حتى يُتِمَّ عَـدَّ رِزْمَةِ فلوسٍ كانت في يـدِه، وفي الرنَّةِ الثالثةِ الْتَقَطَهُ، فَسَمِعَ صَوْتَ زوجتِه الباكي:

- صَابرٌ، يا نورَ الدِّين!

- مَاذَا أصَابَه؟

- إنه لم يَعُدْ إلى الدارِ حتى الآنَ!

وَخَفَق قَلْبُ نُور الدين. كـان يُحِبُّ ابنَهُ حُبًّا لا مثيل له، ولا يَتَصَوَّرُ حَيَاتَهُ بِدُونِهِ؛ فَبَلَعَ رِيقَهُ وَسَأل:

- هَلْ بحثْتُمْ عَنْهُ عِنْدَ رَشيد؟

- قَلَبْنَـا الـدُّنْيَا عليـه قبلَ أنْ أنـاديك... قلتُ ربَّما يكـونُ عندك.

- أنا قادمٌ حالاً. فلا تَقْلَقِي.

ووضع السماعَـةَ، ونظرَ إلى كفِّـهِ الْمُبْتَلَّةِ مفكِّـرًا، ثُمَّ قام ينـزعُ بذلته البيضاء.

8

وفي الغابةِ بقي صابرٌ مُنْبَطِحًا على الأرضِ لحظةً، ليتأكَّدَ من أنَّ الخفافيشَ لنْ تعودَ. وكانت أذُنُه تُلاَمِسُ الأرضَ، فَظَنَّ أنهُ سمعَ شيئًا، فأصاخَ بسمعِه مُلْصِقًا أذُنَه أكثرَ بالأرضِ. وفِعْلاً سمعَ اهْتِزَازًا يقتربُ منه، ويشتَدُّ الاهتزازُ ثم يبتعدُ قليلاً ليَختفِي.

وخطَر ببالِه أنه لا بدَّ أنْ يكونَ لسيارةٍ أو شاحنةٍ ثقيلة. وأنصتَ مرةً أخرى، فإذا بالاهتزاز يشتدُّ ويقتربُ، فوقَفَ بسرعةٍ، وأخَذَ يُنْصِتُ في جميعِ الاتجاهاتِ. وفِعْلاً سمِع صوتَ محرِّكٍ بعيدٍ يأتي من جهةٍ مُعَيَّنَة.

ولم ينتظرْ لحظةً، ففزَ في اتجاهِ الصوتِ، وركضَ بكُلِّ قُوَاهُ وهو يَتَفَادى جذوع الأشجارِ والأحْرَاش المنتشرة بينها. ومن بعيدٍ لاحَ له ضوءٌ يتحرَّكُ فخفقَ قلبُه. وكانت تلكَ أوَّلَ علامةٍ من علائمِ الحياةِ. . .

وبعد دقائقَ من الرَّكْضِ وجدَ نفسَه على أولِ الطريقِ المُعَبَّد.

فَـوقَفَ يلهثُ، وهـو يكـادُ يصرخُ من الفَرَحِ لِنَجَـاتِـه . . . لخروجه من ذلك البحـر النباتي المُظْلِم إلى بَـرِّ السلامـةِ وشاطئ الأمان .

ومشَى بِمُحَـاذَاةِ الطـريقِ وهـو لا يـدري في أيِّ اتجاهٍ يسير، مكنـاس أم الـربـاط ، ولم يكنْ يهمُّـه ذلك . فحيْثُمَا كـانَ البشرُ فتلكَ وجهتُه . وحتى مُخْتَطِفُه لم يَعُدْ يخيفُه كما كانَ قبلَ هَيَامِه .

ولاحَ له ضوءُ سيارةٍ قادمةٍ أمامه ، فوقَفَ وَسطَ الطريق يُلَوِّحُ لهَا بساعِدَيْه . . ولكنها تفـادَتْهُ دونَ أن تتوقّف لحظَةً ، واستمرَّتْ في طرِيقهـا لا تَلْوِي على شيء! وفكَّرَ صـابرٌ: «لا بـدَّ أنَّ راكِبَها فَزِعَ من وجودِ غُـلامٍ على قارعَةِ الطريقِ وسطَ الغـابَة ، وفي هذا الوقتِ المتأخِّرِ . . . لا بـد أنه ظنَّه جِنِّيا أو عِفْـرِيتًا من عفارِيتِ الليل!» .

وتَابَعَ صـابرٌ سَيْرَهُ عازِمًا على ألاَّ يتـوقَّفَ حتى يَعْثُرَ على بَشر حَيّ .

ولاحَ لـه شبحٌ كبيرٌ مظلمٌ جاثمٌ على جـانبِ الطريقِ ، فَفَـزِعَ لـرُؤْيَتِـه . وحاوَلَ تَمْييـزَه من بُعْـدٍ فلمْ يستَطِعْ ، بـالـرغمِ من أنَّ

عينيـه كانتـا قـد أَلِفَتَا الظـلامَ . وظَنَّـه أولاً صخرةً عظيمـةً ، أو شجـرةً قصيرةً مُجْتَثَّةً . وأخـذَ يقتربُ منه على حَـذَرٍ، حتى لمْ يَبْقَ بينهما إلاَّ بِضْعَةُ أمتارٍ، فإذا بنورٍ قَـويٍّ يَنْبَعِثُ من الكُتْلَةِ الجاثِمَة فيُعْشِي عينَيْ صابِرٍ، ويُوجِعُهُما بشدَّةِ نُصُوعِه .

وتسمَّرَ في مكانِـه كالأرنَبِ فاجَأَهُ النـور، وذِرَاعُه على عينيه ، فأحسَّ بيدٍ قويةٍ تُمْسِكُ بِذِرَاعِه ، وبصوتِ مُخْتَطِفِهِ يقول :

- صابر!

ويقتادُهُ نحوَ السيارة :

- لماذا هـــربتَ ، يـا ولـــدي؟ كِـدْتَ تقتُلُني قَلَقًـا عليكَ . ارْكَبْ .

وَصَعِـدَ صابـرٌ إلى السيارةِ مُسْتَسْلِمًا لمصيرِه، وركِبَ الـرجل من النـاحِيَة الثـانيـة ، ونظر إلى صـابـرٍ الذي كـان يُحِسُّ بتعبٍ شديدٍ وجوعٍ أشَدَّ، وقال له :

- لا بـد أنَّ والِـدَيْكَ قَلِقَـانِ عليك جِـدًّا . . سنـذهبُ الآن إليهما .

وأشعلَ المُحرِّكَ ، وانطلَقَ نحوَ المدينة .

كانت العنز الصغيرةُ قاعِدةً على الكُرْسِي الخَلْفِي. نَظَرَ إليها الرجلُ، وقال:

- أرأيتَ ما فعلتَ بـالعَنْزِ المسكينةِ؟ لا بدَّ أنها تَمُوتُ جوعًا، فقد فاتَ أوانُ عَشائها، وكذلك أنتَ. لقد اعْتَدَيْتَ علينا جميعًا بحَماقَتِك.

وعندَ مَدخَلِ المدينةِ توقَّفَ قائلاً لِصَابر:

- انتظرْ قليلاً. سَأُنَادي داركم، وأخْبِرُهم بأننا في طريقِنا إليهم حتى يَكُفُّوا عن القلق.

ونَزَلَ ثُمَّ عادَ فأطَلَّ على صَابر وقال:

- إيَّاكَ أن ترتكِبَ حَمَاقَةً أخرى. لن أكونَ مسؤولاً عما سيحدُثُ لك...

ولم يُجِبْ صابر، بل نظر إلى رُكْبَتِه في عدم مبالاة.

ودخل الرجلُ مخدَع التليفونِ العُمومي، ورفع السماعةَ، ووضع قطعةً نقديةً، وأدارَ القُرْصَ وأخَذَ يتكلَّم.

9

رَنَّ الجرسُ في دارِ الدكتـورِ خليلٍ ، فارْتَمَى عليـه الطبيبُ الذي كان يجلسُ في مَكْتَبِهِ يأكلُ أظافِرَه من القَلَقِ والخَوْفِ على وَلَدِه!

- آلو. . .

- آلو، الدكتور خليل؟

- نعم .

- أريدُكَ أن تعرفَ أن ابنَكَ صابرًا معي ، وهو بِخَيْر.

وحـاوَلَ الـدكتـورُ خليلٌ الكـلامَ ولكنَّ صَـوْتَـه انْحَبَسَ ، فحاولَتْ زوجَتُه إمساكَ السَّماعَةِ من يَده سائلةً إيَّاهُ :

- من؟ صابر؟

فحَرَّكَ رأسَه لها بنعم ، وتكَلَّم بعد لحظةٍ مُتَوتِّرةٍ في السماعة :

- أين صابر؟

- إنه معي هنا . فلا تقلقْ عليه بالمرَّة .

- ولكنْ مـاذا يفعلُ مَعَك؟ كـان المفـروضُ أن يعـودَ من المدرَسـة إلى بيتِـه في الخامسةِ مسـاء . والسـاعـةُ الآن تقتربُ من

الحادِيَةَ عشرَةَ. ومنْ أنتَ على أيِّ حال؟

- أنـا صـديـق. استطعتُ أن أُقْنِعَ بعضَ الأشرارِ الـذين اختطفُـوه بـألاَّ يُـؤْذُوهُ، ووعـدتُهم أن آتيَهُم منـكَ «بـالحَلاَوَةِ» الكَافِيَة. أنـت تعرفُ «بِشَارة» العُثورِ على الأمـانَةِ، وإِعَادَتِهَا إلى أصحابِها...

تنهَّدَ الدكتورُ خليلٌ عارِفًا ما يُريدُ مكلِّمُه، وقال:

- كَمْ تُرِيدون؟

- صابرٌ ولدٌ جميلٌ وَذَكيٌّ ويُبَشِّرُ بمستقبل بَاهِرٍ...

فَقَاطَعَه الدكتُورُ:

- كَمْ تُرِيدون؟

- لقـد أقنعتُهُمْ ألا يَطْلُبُوا مَبْلَغًـا غَيْرَ معقـول. وبعد عِـرَاكٍ طـويل استطعتُ أن أُخَفِّضَ المَبْلَـغَ إلى مـائَةِ أَلْفِ دِرْهمٍ فقط، عشرة ملايين سنتيم لا غير...

فصاح الدكتورُ خليل:

- عشرةُ ملايين!

وكانت زوجتُهُ مُمْسِكَةً بسَمّاعةِ غرفةِ النومِ فقاطَعَتْه :

- سندفعُها . قُلْ لَهُ ، يا نورَ الدينِ ، إننا سندفعُها . . .

فقال الدكتور خليل :

- نعم ، نعم ، سندفعها . . .

فقال الرجل :

- حَسنا . متى يكونُ المبلغُ جاهِزًا .

فقال الدكتور:

- غدًا . غدًا صباحًا .

فَتَدَخَّلَتِ الأم :

- نريد أن نكلِّم صابِرًا . فأعْطِهِ السَّمّاعَةَ .

وتردَّدَ الرجلُ ، ونظرَ من داخلِ المخْدَعِ الزجَاجِي إلى شَبَحِ الطِفلِ القاعِد في السيارة ، وقال :

- انتظروا قليلاً .

وفتح بابَ المَخْدَعِ ، وخرجَ ثمَّ عادَ بصابِرٍ ، وقال له :

- كَلِّمْ أمَّك .

ومدَّ إليه السَّماعَةَ. وتناوَلها صابرٌ، وصاحَ في وَسَطِها باكيا:

- ماما! ماما...

- ولدي صابر، لا تبكِ! هلْ أنْتَ بخير؟

- نعم. أنا بخير.

وكان الرجلُ يستمعُ إلى صوتِ الأُمِّ التي سألت:

- أين أنتَ الآن؟

فاختطفَ السماعةَ من يدِه، وأخرجَه من المَخْدَعِ، وتكلَّم:

- عرفتم الآنَ أنهُ بخير. غدًا سأتصل بكمْ مرةً أخرى لِنتَّفِقَ على مكان التبادُل. ولا داعَي لأَنْ أوصِيَكُمْ بعدَمِ إخْبَارِ الشُّرْطَةِ. أنتم تعرفون كيف تنتهي الحالاتُ التي يتدخَّلُونَ فيها...

ووضع الدكتورُ خليلٌ السَّمَّاعةَ، ووقَف ساهِما بِبَصَرِهِ في الفَرَاغِ، ذاهِلاً عمَّا حولَه:

وجاءَتْ زوجتُه الشَّابةُ بلقيسُ، فَألْقَتْ بنفسِها عليه، وانْخَرَطَتْ في نَشِيجٍ مُتَقَطِّع. فَضَمَّهَا إليهِ، وَرَبتَ بيديه على ظهْرِها، مُهَدِّئًا روعَها، وهي تقولُ من خلال دُموعِها:

- هل سمعتَ صوتَه يا نورَ الدين؟ هل سَمعتَه يَبْكي؟ ولدي الحبيب، ولدي الغالي، ماذا سيفعلُ به ذلك المختطفُ المُجْرِم؟ ولدي..! ولدي..!

وأخذَتْ تَهْتَزُّ بينَ ذِرَاعَيْ زوجِها، وهو لا يدرِي كيفَ يُخَفِّفُ من لوعتِهَا...

10

ووضعَ الـرجـلُ السـاعـةَ، وأمْسَكَ بِيَـد صـابـرٍ، وعـادَ إلى السيَّارةِ. وما ركبَ حتى استَـدَارَ راجعًا في اتجاهِ مكْنَاسَ. وقَبْلَ أن يَسْأَلَهُ صابرٌ قال:

- سيأتي أبُوكَ لأَخْذِك. هكذا اتفقنا.

وكانَ صـابرٌ يبكي بحُرْقَـةٍ، ويَهْتَزُّ في مكانِـهِ من الانْفِعَالِ. سَمَاعُ صوتِ أمـهِ وأبيه فَجَّـرَ حُزْنَهُ. كـان يعتقِدُ أنـه فَقَدَهُما إلى الأبَد...

والتَفَتَ إليهِ الرجلُ وقال باسِماً:

- لا تَبْكِ. فسوفَ تعودُ إلى أهلِك قَريبًا.

وسـارت السيـارةُ مُدَّةً زادَت على عِشرينَ دقيقـةً، مِمَّـا جعلَ صَـابـرًا يَتَمَلْمَلُ في مقعدِه، وبـدأ يَشُكُّ في صحَّـةِ مـا قالَـه لَـهُ خَاطِفُه. فنظَرَ إلى الغاباتِ المُظْلِمَةِ المُحِيطَةِ بالطريق وسأل:

- إلى أينَ نحنُ ذاهبون؟

فردَّ الرجلُ ببساطَة:

- إلى المَزْرَعَة . والدُك يعرفُها جيِّدًا ، وسيأتي عندنا هناك .

ووصلا إلى قرية سيدي عَـلاَّل البَحْرَاوي ، واخْتَرَقَاها . وحين تَوَسَّطَـتِ السيَّارَةُ الغـابةَ المُجاوِرَة لها انحَـرَفَ السائِقُ إلى طـريقٍ مُتْرِبٍ بين الأشجـار. وبعــد أكثـر من سبْعِ دقــائق ، دخلت السيـارةُ حـوْشًـا من القصَـبِ ، في وسطِـهِ دارٌ عتيقـةٌ ، مُحاطـةٌ بالدَّوَالي وأشجارِ الفواكِه .

وأوقفَ الرجـلُ السيارة ، وخرجَ ، ووقفَ يَتثَـاءَبُ ويَتَمَطَّى ، ثم انحنَى وأشـارَ إلى صابـرٍ ليخرجَ ، فخـرجَ بصعوبةٍ . كـانت قدماهُ توجعَانِه . وكان يُحِسُّ بِضَعْفٍ شديد .

وأخرجَ الرجلُ العنزَ وأعطاهُ إياهـا ، وأخرج من جيبه مفتاحًا فتحَ به بابَ الدارِ، ودخلَ وأشارَ لصابرٍ ليتبَعه .

وفي وسطِ الدار أشعلَ الـرجُل فَتِيلَ فَنَارٍ قَـدِيمٍ ، وضَعَهُ على مائدةٍ باليَةٍ ، وراحَ يُشْعِلُ مَصَابِيحَ أخرى .

ولمْ يَمْضِ رُبْعُ ساعةٍ حتى كانـا يَأكُلانِ مِنْ طبقٍ واحدٍ بَيْضًا مَقْلِيًّا في الزُّبدةِ بِخُبْزِ قَمْحٍ لَذيـذ . وأكَلَ صابرٌ بِشَراهَةٍ شديدةٍ ، والرجلُ يَصُبُّ له الشايَ ويُرَاقِبُه .

وبعد نهايةِ العَشاءِ مَلأَ الرجلُ رضَّاعةَ الحليبِ، وأعطاهُ إيَّاهَا ليُرْضِعَ العنزَ، وأشارَ لَهُ إلى غُرْفةٍ بها سَرير:

- اذْهَبْ إلى هناكَ مَعَ العَنْزِ، واسْتَرِحْ قليلاً فوقَ ذلك السرِير حتى يَصِلَ أبُوكَ.

واسْتَلقَى صابرٌ على الفِرَاشِ الخَشِنِ، ووضعَ إلى جانِبه العنزَ، ونَاوَلَهَا رضَّاعَةَ الحليبِ، فَأَمْسَكَتْ بها بِلَهْفَةٍ كبيرةٍ، وأخذَتْ تَمْتَصُّ بِقُوَّة...

11

فَتَحَ صابرٌ عينيهِ في الصباحِ على سَقْفِ الغُرْفَةِ الخَشَبيِّ، فَلَمْ يَـدْرِ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ أينَ هُـوَ؟ وظَنَّ أَنَّـهُ مـا يزالُ نـائمًا يحلُم. ولكنْ سُرْعَانَ ما عـادَتْ إليه ذِكْرَيَاتُ الأمْسِ المرعبة، فاعتـدل جالسًا في السَّرير بِسُرْعَةٍ، ونظرَ حَوَالَيْه. . .

كانـت العَنْزُ نـائمةً على حصيرٍ بجانـبِ سريرِه، ووجَـدَ هو نَفْسَـه مُغَطًّى، وحِذاؤُه وجَـوَارِبُـه على الأرض. ولم يتـذكَّرْ أنـه نَزَعَهُمَا. لا بـدَّ أن الرجل الـذي لا يعرِفُ اسمَـه حتَّى الآن، هو الذي فَعَلَ ذلك.

وفَجْأَةً خطَرَ له القَرار.

فَلَبِسَ جـواربه وَحِـذَاءَه بِسُرعةٍ، وخـرجَ يَتَسَلَّلُ باحثًـا عن مُخْتَطِفِهِ لِيَرَاهُ هو قبلَ أن يَرَاه.

وحينَ أطلَّ سمِع صوتًا من داخِلِ المطْبَخ:

– صباح الخير، يا سي صابر.

فردَّ صابرٌ في خَيْبَةِ أمل:

- صباح الخير.

- الحمَّامُ بجانِبك. اغْسِلْ وجهَكَ وامْشطْ شَعْرَكَ، وتعالَ لتُفْطِر.

وجلَسَ الاثنانِ إلى المائدَةِ القديمةِ وسط الدار، يأكُلاَن شَطَائِرَ الخُبْزِ بالزبدةِ والشاي صامِتَيْن. وحين لم يتكلَّمْ صابر بَادَأهُ الرجلُ بالسؤال:

- لَمْ تَسْألْني، لماذا لمْ يأتِ أبوك.

- كنتُ أعرِفُ أنه لَنْ يأتي.

فضحِكَ الرجلُ في مَرَحٍ، وقال:

- وأنا كنتُ أعرِفُ أنك تعرِفُ أنه لنْ يأتِيَ بالأمس!

وَرَشَفَ من كأسِهِ، وأضاف:

- أبناءُ اليومِ يعرفونَ الهَمَّ الأَكْحَل! التليفزيونُ لم يَتْرُكْ سِرًّا دون أن يفضَحَه..!

وقاطعه صابر سائلاً:

- كَمْ طلبتَ من أبي فديةً لإطْلاقِ سَرَاحِي؟

فَتـوَقَّف الـرجُلُ عن المَضْغ لَحْظَـةً، وحـرَّكَ رأسَه، إعْجـابًـا بِفِطْنَةِ صابرٍ، وابتسمَ ابتسامةَ لِصٍّ ضُبِطَ مُتَلَبِّسًا:

- كيف عَرَفْتَ؟ هل استمعتَ إلى تليفونِ الأمس؟

- الأمرُ واضِحٌ، ألَيسَ كَذلك؟

- لقد قُلتُها لك. التليفزيونُ فَضَحَ أسْرَارَ جميعِ الحِرَف.

ثم أضاف:

- طلبتُ من أبيكَ مَبْلَغًا مُتـوَاضِعًا جـدًّا. ولو كنتُ طلبتُ مِائةَ مليونٍ لأَخَذْتُهَا. فَأنْتَ أغْلَى عِنْدَ أبَوَيْكَ من كلِّ شيء.

فسأَلَ صابرٌ مُتشجِّعا:

- ولكنْ لماذا اخْتَرْتَني أنا بالذات؟ لماذا اخترتَ أبي؟ إنهُ رجلٌ مستقيمٌ، ويحبُّ الخيرَ للناسِ جميعًا.

- اخترتُ والدَكَ لأسبابٍ عِدَّة. أولاً: لأَنَّهُ يستطيعُ الدَّفْعَ في أقربِ وقتٍ. وثانيًا: لأنك...

وترَدَّدَ الرجلُ قبلَ أن يقول:

- وأرجـــــو ألا تَغْضَبَ، اخترتُـكَ لأنَّك مُغَفَّـل، ويَسْهُلُ إغْرَاؤك!

فأحسَّ صابـرٌ بالدَّمِ يَصْعَـدُ إلى رأسِه من إهَانَةِ مختطِفِـه له . وكان غضبُه أشدَّ لأَنَّ ما قَالَه الرجلُ كانَ حقًّا لا جِدَالَ فيه .

ورغم ذلِكَ وَجَدَ نَفْسَهُ يقولُ مُحَاوِلاً الدِّفاعَ عن ذَكائه :

- أنا لستُ مُغَفَّلا! فَأنَا أطلعُ دائمًا من بين الخَمْسَةِ أو العشْرةِ الأوَائِلِ في الامتحان . . .

فحرَّكَ الرجلُ رأسَه مُلْغِيًا احْتِجَاجَ صابر:

- أنا لمْ أقلْ «بليدٌ» ، بلْ قلتُ «مُغَفَّلٌ . . » .

- وهل بينهما فرق؟

- فـرقٌ شـاسِع! البليـدُ هــو الغَبِيُّ المُصَفَّحُ الـذي لاَ يَفْهَمُ شيئًـا . أمـا المُغَفَّلُ فقـد يكونُ ذكيًّـا في دِراستِـه ، ولكنـه عَـدِيمُ التجرِبـةِ والذكاءِ الاجْتماعي ، بِحَيْثُ يَسْهُلُ خِدَاعُـه والاحْتِيالُ عليه ، مِثْلكَ أنت!

وقبلَ أن يُجيبَ صابرٌ بشيءٍ أضافَ الرجل :

- ولكنَّ السببَ الحَقيقيَّ الذي جَعَلَنِي أختارُ ابنَ طَبيبٍ هو أنني أَكْرَهُ الأَطِبَّاء .

ولأولِ مرَّةٍ ظَهَر الانْفِعَالُ على وجهِ الرجلِ. فسأله صابر:

- تَكْرَهُ الأطباءَ؟ ولكن لماذا الأطباءَ بالذَّاتِ؟

- سأقول لك . . .

وتَنَهَّدَ الرجلُ وهو يَسْتَرْجِعُ ذِكرى لا بُدَّ أنها مُؤْلِمَةٌ للغاية، وقال:

- كان لي طفلٌ صغيرٌ في حوالي العامَيْنِ من عُمُرِه. كان جميلاً كالياقُوتَة، سَمِينًا كالبطِّيخة، وَذَكِيا ولَعُوبا. وكان يَمْلأُ بيتي سَعَادَةً وأُنْسًا وَحُبًّا . . . وكنتُ أنا عَامِلاً مُحْتَرَمًا في أحَدِ المَرائِبِ الزراعية، أشتَغِلُ ميكانيكيًّا للجَرَّارَاتِ، والسيَّاراتِ ومضَخَّاتِ الماء. وكنتُ أكسِبُ ما يَكْفِينِي لِقُوتِ عائلتي الصغيرة. حتى جاء يوم طَرَدَنِي فيه الرئيسُ الجديدُ للمركزِ الزراعي . . .

فقاطعه صابر:

- طردك! لماذا؟

- لِيُعْطِيَ وظيفتي لأَحَدِ أقَارِبِه الذي لا يعرِفُ شيئًا في الميكانيك!

- هذا فظيع! وهل شكَوْتَهُ إلى رئيسهِ؟

- شكوته إلى الله!

- ولكن لماذا لم تَكْتُبْ رسالةَ شكوى به لرئيسِه؟

- لا جَدْوَى من الكتابةِ ولا نَفْع. كلهُم سواء. ويُدافِع بعضُهُم عن بعض...

- ولكنْ هل كتبتَ أنْت؟

- في الحقيقة لَمْ أكْتُبْ. ولكن ما الفائدة؟

فحرك صابر رأسَه متأسِّفًا على عَقْل الرجلِ، وقال:

- هذه هي مُشْكِلةُ الناس! يَتَعَرَّضُونَ للظلمِ ولا يَشكُونَ، ولا يَفْضَحون ظالميهِم عندَ رُؤَسَائِهِم...

فردَّ الرجلُ يائسًا:

- ولَكِنَّ رُؤَسَاءَهم مِثْلُهم تماما!

- كيفَ عرفْتَ؟ هل جَرَّبْتَ الكتابةَ إليهم؟

- ناسٌ آخرون كتبوا.

فقاطعه صابر:

- هل جَرَّبْتَ أنتَ الكتابةَ إليهم؟

- لا.

- إذن كيف تَتَّهِمُ الناسَ بِكـلامِ الآخَرين؟! بالإشَـاعاتِ؟! كان يجِبُ أن تكتبَ أنتَ إلى رئيسِ مديرِ المركزِ. هذا ما سمعتُ أبي يقولُه مِرَارًا لبعضِ المُتَظَلِّمِينَ. بل ولا تكتفي بـالكِتَابَةِ لرئيسِه المُبَـاشِرِ، بل اكْتُبْ من الشكـوى خَمْسَ نُسَخٍ وابعثْ بِهَا إلى جميعِ المسـؤولينَ بِمَنْ فيهـم وزيـر الـزراعَـةِ ورئيـس الـوُزَرَاءِ ورئِيس الدولَة.

فضحكَ الرجلُ من غَفْلَةِ صابرٍ وقال:

- ما تزالُ مُغَفَّلاً كبيرًا، يا ولدي!

فاحمرَّ وجهُ صابرٍ مرَّةً أخرى وهو يَتَذَكَّرُ الإهانةَ، وقال:

- لماذا؟

- ألم تَسْمَعْ بما يُسَمَّى في الإدَارَةِ «بوَرَقَةِ الإرْسَال»؟

- ماذا تعني؟

- وَرَقَةُ الإرْسَـال هي الرسـالةُ التي يَبْعَـثُ بها الرئيسُ رِسَـالَةَ المظلومِ إلى ظَالِمِه، لِيزِيدَ في التنكيلِ به!

لم يَجِدْ صابر ما يقول، فزاد غضبُه لِعَجْزِه.

اسْتَأنفَ الرجلُ حديثَه:

- المُهِمُّ هـو أني بقيتُ عاطِـلاً مـدةً أبْحَثُ عن عملٍ، حتى نَفِـدَ كُلُّ مـا وفَّـرتُـهُ من نُقـودٍ! وفي هــذه الفترةِ مَـرِضَ طِفْلِي الوحيـدُ. اشْتَعَلتْ فيه الحُمَّى بِسُرْعةٍ كبيرة حتَّى صـارَ كَجمرَةٍ تكوِي! وأخذتُـهُ إلى طَبيب وقلبي يتمزَّقُ خَوفـا عليه. وبدَلَ أن ينظُـرَ الطبيـبُ إلى الصَّبي المُحْتَرِقِ بـالحُمَّى أخَـذَ يَسْألُنِي هل معك فُلُوس..؟ وحينَ قلتُ له: إنني عـاطِل، وسوفَ آتيه بها حالَمَا أشتغلُ رَفَض مجردَ النظر إلى الطفلِ، وأخـرجَني من عيادتِهِ مطرودا...

بدا التأثُّرُ والغضبُ على وَجْهِ صابر:

- لماذا لم تَذْهَبْ إلى مستشفى عُمُومي؟

- المستشفى كان بعيـدًا، والإجراءاتُ فيـه طويلـة ومُعَقَّدَة. الانتظارُ وإهـانَاتُ مُسْتَخْدَمِي المُسْتَشفى وانعدامُ الإنسـانيةِ في المُمَـرِّضِينَ والمُمَـرِّضَـات، وطلبُهُم للفلـوسِ لتَسْبيقكَ على الآخرين... لا فائدَة! لا فائدَة على الإطْلَاق!

- وماذا حَدَثَ لولدِك؟

فتنهَّدَ الرجلُ بِعُمْقٍ وَقال:

- مَـاتَ ولـدي! ماتَ بين يَـدَيَّ. . . ضَمَمْتُـهُ إلى صَـدْرِي فأحسَسْتُ بـأنَّـهُ تَحَوَّلَ إلى حَجَـرٍ بـارِدٍ. . ولمْ أصـدِّقْ أنـه مَات. . . ولدي. . . ولـدي. . . وَهِمْتُ على وجهي كالمجنون بينَ دروبِ المدينـةِ، وزوجتي خلفي تَبْكي وتَجْرِي ورائي، حتى أوقفنا الناسُ. وأخذُوا يُصَبِّرُونَنَا، ويُرْجِعونَنَا إلى صَوَابِنَا. . .

ونظَـرَ الـرجلُ بِطَـرفِ عَينيـه إلى صـابـرٍ فـوَجَـدَه يبكي من التَّأثُّـر. . . فأخْـرَجَ هُوَ الآخـر من جيبـه مِنْـدِيلاً كبيرًا، وأخـذ يمسحُ عينيهِ قائلاً:

- وهــذا مــا دفعني إلى الحِقْــدِ على المُجْتَمَع والانْحِـرَافِ والجَريمة.

ووضعَ المنــديلَ الكبير على وجْهِـهِ، وأخَـذَ يَشْهَـقُ وَيَهْتَـزُّ، وصابرٌ ينظرُ إليهِ دونَ أن يَدْرِي هل كانَ يبكي أو يَضْحَكُ!

وفي النهاية، رفع الـرجلُ المنديلَ عن عينيه، فإذا هما حَمْرَاوَانِ

تَملأُهُمَا دمـوعُ الضَّحِكِ المَكْتُوم، وقـال لصابـرٍ وهو يحرِّكُ رأسَـه يائسًا من إصْلاَحِه :

- مَـرَّةً أخـرى تَنْخَـدِعُ بِكَـلامي، أيها المغفَّلُ الصغيرُ! أنـا لم يَمُتْ لي ولـدٌ، بل لم أتـزوَّجْ أبـدًا، ولم أشتَغِلْ يـومًـا واحـدًا في حيـاتي. لماذا أشْتَغِل والمغفَّلُونَ مِثْلُـكَ كَثِيرونَ كبارًا وصِغـارًا؟! هُمْ يَشْتَغِلُونَ وَأَنَا أَجْنِي ثِمَارَ عَمَلِهِم . . .

وأضاف :

- ولكن هـذا لا يعني أنَّ مـا حَكَيتُـه لَكَ لمْ يحدُث. فقـد سمعتُ كثيرًا مِثْلَه. وهذا سَبَبُ حِقْدِي عَلَى الأطِبَّاء.

ووقف يَتَمَطَّى وَيَتَثَـاءَبُ في تجاهُلٍ تـامٍّ لصَـابِرٍ الـذي كـانَ يَتَمَيَّـزُ من الغَيْظِ، ويقـولُ في نَفْسِـه : «سَنَـرَى منْ المغفَّلُ الحقيقي!»

وأظْلَمَتِ السماءُ بـالخارِج، ولَمَعَ البرْقُ بَـاهِـرًا حتَّـى خـافَ صـابرٌ منـه على عينيه. وبعْـدَ لَحْظَـةٍ انْفَجَر الـرعْدُ انْفِجَـارَاتٍ مُتَتَابِعَـةً شدِيدةً حتى ظَنَّهَـا صابرٌ بَرَامِيلَ هَـائِلةً تَتَدَحْـرَجُ نَحْوَ الدارِ لِتَسْحَقَهَا! فَدَخَلَ تحتَ المَائِدَةِ مُحْتَمِيًا بها.

وانفتحت أبـوابُ السماءِ، وبَدَأ المطـرُ ينـزِلُ غَـزيرًا، فـوقَفَ الرجلُ ينظُر من النافذة في قلقٍ، وقال:

- يجَبُ أنْ أنزِلَ إلى المدينةِ الآنَ قبلَ أنْ تَنْسَدَّ الطريق.

وذهبَ الرجلُ فجلسَ إلى مِرْآةٍ في وسَطِ الـدارِ، وأخَذ يُرَكِّبُ اللِّحْيَةَ البَيْضَـاءَ، وَيَطْلِي حاجِبَيْهِ مُسْتَعِدًّا للخـروجِ، مُتَنكِّرًا في هيئةِ بَدَويٍّ عَجُوز.

وَالْتَفَتَ إلى صابرِ وقال له:

- اذْهَبْ وَجِئني بِجِلْبَابي.

وحينَ لمْ يَتَحَرَّك صَرَخَ فيه:

- ألمْ تَسْمَع؟

فوقَف صـابرٌ مُنْزَعِجًا لِصَيْحـةِ الرجلِ الذي تَنَمَّـرَ له لأَوَّلِ مرَّة، وقال:

- أين هو؟

- في غرفة نومي.

فَذَهبَ صابِرٌ وعادَ بـالجلبابِ الصُّوفِي المُهَلْهَل، ووَضَعَه على

كُـرْسِي. كــان الـرجلُ يُصفِّـرُ سَعيــدًا، ويُغَنِّي بِكَلِمَاتٍ كـان يَنْظُمُهَا في الحال:

يَعِيشُ العُقَـــــــلاَءْ بِجَهْـــــدِ الأَغْبَيــــــاءْ
لَـــــوْلاَ المُغَفَّلُــــونْ لَمَاتَ الأَذْكِيَــــــــاءْ

والْتَفَتَ إلى صابِـر بِلِحْيَتِهِ وَوَجْهِـه الذي تَغَيَّرَ تَمامـا، وسألَهُ وهو يَسْعُلُ كَرَجُلٍ عجوز:

- ما رأيكُ؟ هلْ أصْلُحُ مُمَثِّلاً؟ في الحقيقـةِ لو كُنْتُ وُلِدْتُ في أمـريكا لاحْتَرَفْتُ التمثيلَ بَـدَلَ السَّرِقَةِ والابتـزاز. ولَصِرْتُ نَجْماً مَشْهورًا وغَنِيًّا. ولكنْ لِسُـوءِ حَظِّي وُلِدْتُ في بَلَدٍ مُتَخَلِّفٍ، لا يُقَدِّرُ المَوَاهِب.

كانَ صـابرٌ يُفكِّـرُ بِسُرْعَةٍ في طـريقَةٍ للنَّجـاةِ من قَبْضـةِ هذا اللِّصِّ المَاكِر. كان غَضَبُه قـد تَضاعَفَ بعد أنْ تلاعَبَ الخاطِفُ بعواطِفِه، وأكَّدَ له، مَـرَّةً أخرى، أنَّهُ مُغَفَّلٌ، بل وبليدٌ يَثِقُ بأَيِّ شَيْءٍ، ويَسْتَطِيعُ كُلُّ مُحْتالٍ أن يَخْدَعَهُ.

والْتَفَتَ إليهِ الرجلُ، مرَّةً أُخْرَى، آمِرًا:

- ابْحَثْ عنْ جِلْبَابِي المُشَمَّعِ لألبَسهُ فَوْقَ هذا. هَذا المطَرُ لاَ يَبْدُو عليه أنهُ سَيَتَوَقَّفُ.

- وأين هو؟

- بالطابق السُّفلي ابْحَثْ عنهُ في القَبْوِ. انْزِلْ مِنْ هُناك.

وأشارَ إلى سُلَّم في رُكْنٍ بِجَانِبِ المَدْخَل. ونَزَلَ صابِرٌ خَائِفًا إلى القَبْوِ المُظْلِمِ، وَوَقَفَ على آخرِ دَرَجَاتِ السُّلَّمِ ينظُرُ حَوَاليه.

وحينَ اعْتَادَتْ عَيْنَاه الضَّوْءَ البَاهِتَ الذي كانَ يَدْخُلُ من نافذة صغيرة رأى الجلباب المُشَمَّعَ، فذهبَ إليه، وهَمَّ بأخذِه من المِشجَبِ.

وحينَ اقتربَ منه لاَحَظَ فَوقَهُ خُطوطًا زَرْقَاءَ، كخُطُوطِ قَلَمِ حِبْرٍ جَافٍّ. في تلكَ اللحظةِ فقطْ خَطَرَتِ الفِكْرَةُ في ذِهْنِهِ، فأخَذَ يَبْحَثُ في جُيُوبِهِ عن قَلَمٍ، دونَ جَدْوى.

وسمِعَ صَوْتَ الرجلِ يصيحُ بهِ من أعلى:

- ماذا تَفْعَلُ هناك؟

فَعَادَ إلى الصُّعُودِ دونَ جِلْبَابٍ قائلاً:

- لَمْ أعثُرْ على الجلباب. القَبْوُ مُظْلِمٌ لِلْغَايـة. هَلْ آخذُ المِصْبَاحَ لأَبحَثَ عَنه؟

- خُذْهُ وأسْرِعْ. فقد انْتَهَيْتُ من المكياجِ.

ودخَلَ صابرٌ غُرفةَ نَوْمِـهِ حَيْثُ كانتْ مِحْفَظَةُ كُتُبِهِ، فأخْرَجَ منها قَلَمًا أحْمَرَ، وتَنَاوَلَ المِصْبَاح، وخرج مُتَوَجِّهًا نحوَ القَبْوِ. وهناكَ أشْعَلَ المِصْبَاحَ، ونَشَرَ الجِلْبَابَ على الحائِطِ بيدٍ، وأخَذَ يَكْتُبُ على ظَهْرِهِ بالقَلَم الأحْمَرِ بِخطٍّ وَاضح:

«هَذَا سَارِقُ أطْفَال، اتْبَعُوهُ تَجدوني».

وحينَ انْتَهَى، أخْفَى القَلَمَ، وأخَذَ الجِلْبَابَ المُشَمَّعَ، وصَعِدَ بِهِ مَطْوِيًّا بحيثُ لا تَظْهَرُ الكِتَابَةُ على ظَهْرِهِ.

ووجَدَ الرجلَ واقفًا يلبسُ الجِلْبَابَ الصُّوفِيَ الرَّثَّ، فَنَاوَلَهُ الجِلْبَابَ المُشَمَّعَ بطريقةٍ سَتَرَتْ عَنه الكِتَابَةَ.

ولَبِسَهُ المُخْتَطِفُ دونَ أن يَشُكَّ في شيءٍ، والْتَفَتَ إلى صَابِر، ودَفَعَه أمامَه قائلاً:

- أُدْخُلْ أنتَ غُـــرْفَتَكَ، وَاقْــرَأْ كُتُبَكَ حتَّى أعُــودَ. إذا نَجَحَتِ العَمَلِيَةُ فسيأتي أبوكَ ويأخُـذُك قبلَ الظُّهر. فَلاَ تحاوِلْ عملَ شيءٍ يعرِّضُ حياتَك للخَطَر، كالخروجِ مِن الدار مثَلا، فَحَوْل الـدارِ غابةٌ كثيفـةٌ ومُخِيفَةٌ وعـامِرَةٌ بالـوُحُوشِ والأَرْواحِ الشِّرِّيرَة.

وأدْخَلَهُ الغُـرْفَة، ودَخَل مَعَهُ ليتأكَّـدَ من أنَّ النافِذَةَ الـوحيدَةَ بها مُغْلَقَةٌ نِهائيًّا بـالألواحِ والمَسَامير. وخرجَ فأقفـلَ البابَ خَلْفَهُ بالمِفْتاحِ، تـارِكًا لهُ المِصْبَاحَ الكهـربائي، وبَعْضَ الأكلِ والماءِ. وذهب.

ووقَفَ صابـرٌ يُنْصِتُ إلى وَقْعِ أقْدَامِ الرجلِ وهـو يَبْتعدُ، ثمَّ إلَى صَـوْتِ البـابِ الخَارِجي وهـو يُقْفَلُ، ثُمَّ صَـوتِ مُحَرِّكِ السَّيَّـارَةِ وهي تَبْتَعِدُ عن الـدار، وسطَ الغابـةِ، لِيُغَطِّيَهُ صـوتُ المَطَرِ الذي كان ينزلُ بِرَتَابَةٍ واعْتِدَال.

وخَشِيَ صـابرٌ أن يَمْسَحَ المَطَـرُ مـا كَتَبَـهُ على ظَهْرِ الجِلْبَـابِ المُشَمَّعِ قبلَ أن يَقْرَأَهُ أحـدٌ، فوقَف يـدعو الله مُغْمَضَ العينينِ، ويَتَضَرَّعُ إليه بخشوعٍ كبير.

12

وفي ساحـةِ المدرسةِ بالمدينةِ كـان المطرُ قد تـوقَّف، فاجتمع زُمَـلاءُ صـابـرٍ وأَخَـذُوا يَتَسـاءَلـون عنـه. وأخيرًا قَـرَّروا رُكُـوبَ أَلْوَاحِهِمْ الدارجةِ والذهابَ إلى منزلِهِ لمعرِفَةِ سَبَبِ تَغَيُّبِه.

وطـرقَ جارُه، وصـديقُـه «مُحْسِنٌ» البابَ، ففتحَتْـهُ الخادِمُ، وفاجأها «محسنٌ» بالسؤال:

- أينَ صابر؟ لماذا لمْ يأتِ إلى المدرسة؟

وفتحتْ فَمَهَـا لا تـدري مـا تقـول، فإذا أمُّ صـابـرٍ تُمْسِكُ بالخادِمِ مـن كَتِفِها، وتُبْعِدُهـا عن البابِ، وتُعَلِّـقُ على وجهِها ابتسامةً مُتَكَلَّفَةً لِتُجيبَ «محسنًا»:

- صابر؟ هلْ تريدُ صابِر؟

- كنتُ فقط أسألُ لماذا لَمْ يَأتِ إلى المدرسة ؟

- إنه مُتْعَبٌ قليلا.

- تَعنينَ مريضًا ؟

- نعم.

فضحِكَ محسنٌ غير مُصَدِّق :

- لا يمكن!

واندهشتِ المرأةُ من جَوابِ محسنٍ الوَقِحِ ، وتَخَيَّلَتْ أنه سَمِعَ شيئًا عن الاختطافِ فَسَألَتْ :

- لماذا لا يُمكِن؟

- لأنه ابنُ طبيب . كيفَ يَمْرَضُ ابنُ طبيب؟

فابتسمتُ مُرْتاحةً ، وأجابَتْ :

- حتَّى أبناءُ الأطبَّاءِ يمرَضُونَ يا عزيزي!

وَهَمَّتْ بإقْفَال البابِ ، فَأَدْخَلَ حِذَاءَهُ في شقِّه ، وقال :

- هل أستطيعُ زِيَارَتَه؟

- إنه نَائمٌ الآن . عُدْ في المساءِ أوْ غَدًا .

ونظرَتْ إلى حِذَائِهِ وكأنها تقولُ له : «كَفَى!»

فَأَخْرَجَ حذاءَه من شِقِّ البابِ ، ووقفَ يُفَكِّرُ غيرَ مُقْتَنِعٍ بقصَّةِ الأم .

ونزل الدرجاتِ الثلاثَ، وخـرج من الحديقة ليُوهِمَ أم صابر أنه ذَهَبَ. ثُمَّ عادَ فتَسَلَّقَ الحائِطَ القصيرَ إلى الحديقة، وَقَفَز إلى نافِذةِ غُرفةِ صابـر، كما كان يَفْعَلُ دائِمًا حينَ يأتي لزيارَته، وأطَلَّ وَسطَ الغُرفـة، فلم يَجِدْ أحدًا. كانَ فراشُ صـابرٍ ما يزالُ مُـرَتَّبًا كما كان قَبْلَ أن ينامَ فيه.

وَتَساءَلَ: «يا تُرَى يكونُ نائمًا في غُرفةِ والديه؟».

وهَمَّ بـالخروجِ قبلَ أن يَكتَشِفُـوه وهو مُقْتَنِـعٌ بأَنَّهُ في غـرفـةِ الوالـدين لِيَسْتَطِيعا العنايةَ بـه أكثر. إلاَّ أنه سمِعَ شيئًـا أوقَفَه في مكانِه خلْفَ الباب.

كانت امرأةٌ تُوَلْوِلُ بأعْلَى صوتِها وسطَ الدارِ وتقول:

- ويلي! ويلي! سيدي صابر خَطَفُوه!

وسمع صوتَ أمِّ صابر تُحاوِلُ إسْكَاتَها:

- اسكتي يا خديجة! من قال لكِ هذا الكلامَ الفارغ؟

فَوَلْوَلَت المرأةُ:

- لا داعِيَ لإخْفَاءِ الحقيقةِ... وَيْلي! ولدي العـزيزُ صابر! سَيَقْتُلُه المُجْرِمُون! إنهم لا يُعِيدُونَ أيَّ طِفْلِ اخْتَطَفُوه...

ومن ثُقْبِ البـاب أطَلَّ «محسنٌ» على المَشْهَدِ المأْسَاوِيِّ الذي كانَ يَحْدُثُ وَسطَ الدارِ، فَرأَى أمَّ صابر تَسْقُطُ مُغْمًى عليها، بَيْنَ ذِرَاعي امرأةٍ أخرى.

ورأى الخَدمَ والمرْأَتَيْنِ يَتعاونَّ على حَمْلِ الأم المُغْمَى عليها ويضَعْنَهَا على أريكَةٍ وَسطَ الدار.

وتوجَّهَتِ المرأةُ الثانيةُ إلى المرأةِ المُوَلْوِلَةِ تلومها على ما فَعَلَتْ:

- هَلْ جُنِنْتِ يَا امْرَأة؟

فَضَرَبَتِ الأخرى على صَدْرِها بِبَرَاءَةِ المظْلوم، وَسَأَلَتْ:

- مَاذَا فَعَلْتُ؟

- هل مثلُ ذلك الكلامِ يُقالُ لأُمِّ غُلامٍ مَخْطُوف؟ هَلْ أعْجَبكِ ما رأيت؟

- وماذا تُرِيدِينَنِي أن أفْعَلَ؟ أكذِبُ عَلَيْها؟ أُخْفِي عَنْهَا الحقيقة؟

- أيةُ حقيقة؟ هل رأيتِ الولدَ مقتولاً بعينيك حتى تقولي لها ذلك؟!

- ولكنهـــا الحقيقــة . . . المختَطِفـون لا يُــرْجِعُــون ولــدًا اختطفـوه، حتى ولـو أخـذوا الفِـدْيَــةَ، وذلك خـوفًـا من أن يتَعرَّفَهُم ويفضحَهم. رأيت ذلك مرارًا في أفْلاَم التليفزيون.

فحرَّكَتِ المرأةُ رأسَها غاضبةً وكرَّرت:

- أفـلام التليفزيـون! هل نحنُ نُمَثِّلُ فِيلْما؟ وحتَّى ولو كـان ذلك حقيقـةً رأيتِها بعينيك فما كانَ يصِـحُّ لكِ أن تَقُولِيهـا أمامَ المرأةِ المسكينة. يا لكِ من قليلةِ ذَوقْ، ناقِصةِ عَقْلٍ وَلَبَاقَة!

وانْفَجَرَت المرأةُ المُوَلْوِلَةُ باكيةً للإهانة.

- هذا جَزَائي على قولِ الحقِّ! أصبحـتُ قليلَةَ ذَوقٍ وناقِصةَ عقل ولَبَاقَةٍ. لا يَصْلُحُ لكم إلاَّ الكذَّابُونَ والمُنَافِقُون!

فأمْسَكَتْ بها المرأةُ الأخـرى من ذِرَاعِهـا، وأجْلَسَتْهـا على كرسي قائلةً:

- صابر فعلاً مخطوف، وقد اتَّصَلَ خاطِفُه بأبيه، وطَلَبَ منه فـديـةً لِيُطْلِقَ سَرَاحَـهُ، واشْتَرَطَ عَدَم إخْبَـار الشُّرْطَـةِ، لـذلكَ فـالجميعُ هنـا يريـدُ إبقَـاءَ أمرِ اخْتِطـافِـهِ سِرًّا. وصُرَاخُكِ أنتِ وعَـوِيلُكِ لَنْ يُســاعِـدَ على ذلك. فأرجـوكِ أن تُســاعِـدِينَـا بالسكوت. فهمت؟

13

وتَسَلَّلَ محسنٌ خارِجًا من نافِذَةِ غُـرفَةِ صَابر إلى الحَديقةِ، ثم تَسَلَّقَ جِدَارَهَا إلى الشارع حيثُ كان ينتظِرُهُ زُمَلاَؤُه.

ودخَلَ وسطَهم فاجتمَعُـوا عليه يَتَهامَسُون. فَأَسْكَتَهُمْ بِيَـدَيْهِ قائلاً:

- ششش! شيءٌ خطيرٌ حَدَثَ لِصَابر...

- ماذا؟ ماذَا حَدَثَ؟

- ششش! إنهم خَطَفُوه!

فارتَفَعَتْ منَ الجماعةِ شَهْقَةٌ عالية:

- خطفوه؟!

- ششش! لا أحَـدَ يَعـرفُ غيرُ أهلِ الـدارِ. وأعتقِـدُ أنهم يَجْمعون الفِدْيَة، وينتظرُونَ اتِّصَالَ اللِّص.

فسألَ أحد زملاء صابِر اسمُه «محمد»:

- ماذا يُمكِنُنا، نحنُ، أن نفعلَ لإنقاذِ صابر؟

فقال محسن مفكرًا:

- لا أدري. يَجِبُ أن نُفَكِّرَ في طريقةٍ للعمل.

وبَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ وَحَيْرَةٍ، قال محمد:

- اسمعوا، إذا كـانَ المُخْتَطِفُ سَيَتَّصِلُ بوالدِ صابـر، لِيَتَّفِقا على تسليمِ الفِدْيَةِ، فكيفَ سيكونُ الاتِّصال؟

وقبل أن يجيبَ أحد، قال محمد:

- عن طريـقِ الهاتف، طبعًا. وأيُّ هاتـف؟ هاتف دَارِه؟ لا أعتقِـدُ أن لِلْمُخْتَطِـفِ دَارًا. وحتى إذا كـانـت فَلَنْ يجرُؤَ على الكـلامِ مِنهـا خـوف الاكتشـافِ. فَمِنْ أينَ يتكلَّم؟ من إدارةِ البريـد؟ لا يمكن؛ سيخافُ أن تسمَعَـه عامِلَـةُ الهاتفِ. فماذا بَقِيَ لـه من وسـائلِ الاتِّصـالِ إذَنْ؟ هـاتف الشـارع. وإذا اسْتَثْنَيْنَـا هـواتف المَقَـاهِي والـدكـاكينِ، فلن تبقى إلا مَخَادِعُ الهاتفِ العمومية بالشارع.

فقال محسن مُتَحَمِّسًا:

- أحسنت، يـا محمـد! إذن ليس لنـا أمـلٌ في العثـور على

المختطِفِ إلا حـولَ مَخَادِعِ الهاتف. فَلْنَنْتَشِرْ كُلُّنا. وَلِيَأخُـذْ كلُّ واحِدٍ مَخْدَعَ هاتف يَحْرُسُه من بعيدٍ. فإذا دَخلَه شخصٌ، يَنتظرُ حتَّى يبدأ الكلامَ، وحينئذٍ يَقترِبُ من المَخْدَعِ لِيستَمِعَ إلى كلامِه دونَ أن يَراه، إذا استطاعَ.

وسأل «أمين»:

- وإذا وَجَدناه، ماذا نَفْعَل؟

فنظر الجميعُ إلى محسنٍ، قائِد العمليةِ، فلم يَزِدْ على أن قال:

- هذا سؤالٌ مُهِمٌّ، هل عندكُم اقْتِراح؟

فرفع «عُمَرُ» إصْبَعَهُ:

- يمكنُ أن نَسْتَعْمِلَ «الماشي - واشي»، الهاتف اللاسِلكي النَّقال. أنا وأخي عثمانُ عندنا زَوْجٌ منه.

فصاحَ «محسن»:

- جميل! جميل جِـدًّا! كيف لم أُفَكِّـرْ في ذلك؟ أنـا الآخـر عندي زَوْجٌ. من عندَه (الماشي - واشي)؟

فرفع خمسةٌ أصَابِعَهُم، فقال محسن:

- يكفي هذا العَدَدُ. لِنَذْهَبِ الآنَ إلى منازِلِنا، فَنَأخُذ شَطَائِرَ للغداء.. و(الماشي - واشي)، ونذهب حالاً إلى المخادِع الهاتفية. اتركوا الأجهزة تعملُ طولَ وقتِ العَمَلِيَة.

وانتَشَرَ الفتيان في جميعِ الاتّجاهَاتِ، يَدْرُجُون على ألواحهم الدارِجَة بسُرْعةٍ ومَهَارَة.

14

وحوالي الساعة الواحِدة ظُهْرًا كان المُخْتَطِفُ المُتَنَكِّرُ في شكلِ بَدَوِيٍّ عجوزٍ يصعَدُ بسيارَتِهِ البـاليةِ الطريق الصاعِد من جِسْرِ (محمد الخامس) إلى ساحةِ (أبـراهام لينكولن) . واخْتَرَقَ الميدَانَ على مَهَلٍ إلى شـارعِ الجزائِرِ، فسـاحـةِ الوحْـدةِ الأفـريقيـة، ثم شارع عنَّابَـةَ، حيثُ بَدَأَ يبحثُ عن موقِفٍ لسيارتِـه قَريبٍ من (سوقِ الزهور) .

وأوَقَفَ السيـارةَ، ونظرَ حـوالَيْهِ في كلِّ اتِّجاهٍ، ثُم تحرَّكَ نَحْـوَ مخدعِ الهاتف الـواقعِ على جَنْبِ الطـرِيقِ الفـاصِل بينَ السـوقِ الجديد ومحطَّة وقود (لامارن) .

كـان حسنٌ زميلُ صابـرٍ في القِسْم والـذي يجلس إلى جانِبـه مباشرَةً مُنْشَغِلا بقراءَة مجلَّةٍ مصوَّرَةٍ، يَرْفَعُ رَأسَه ليَمْسَحَ الساحَةَ بعينيه، مِن وراءِ نظَّارَته السَّمِيكةِ، من حينٍ لآخَر.

وَرَأى الـرجلَ البدويَّ يتحـرَّكُ نحوَ مَخدعِ الهاتف، فلم يُعِـرْه أي اهتمام. لم يَكُنْ يتصـورُ أنَّ رجُـلاً في ذَلك المَظْهَـرِ يمكنِ أن يَخْطِفَ أحدًا.

ووقف الرجل أمامَ المخدعِ الهاتفي ينظرُ حوالَيْه . وحينَ تأكَّدَ من أن كلَّ شيءٍ هادِئ دَفَعَ البابَ ودخل .

ولم يَتَوقَّعْ حسن أن يَسْتَعمِلَ رجلٌ مثلَه الهاتفَ ، فتظـاهَرَ بأنه ذاهبٌ واقتربَ من المَخْـدعِ ، وانحنى خَلْفَـهُ مُتَظَـاهِـرًا بِعَقْـدِ حِذَائه .

وحينَ رَفَعَ رأسـهُ لينْظُرَ إليـهِ وَقَعَتْ عينـاه علَى الكِتَـابَةِ فـوقَ ظَهْـرِه . وَحَسِبَها أولاً خطـوطًا عَشْـوائيةً على جلْبـابٍ مُشَمَّع ؛ ولكنه حين رَكَّزَ اهْتِمَامَـه عليها فَتَحَ فَمَه من الدَّهْشَـةِ والمُفاجَأة . كانَ الخطُّ مألوفًا عِنْده جدًّا ؛ فهو خَطُّ صابر، يعرِفُه جيدًا .

وقـرأ : «هذا سـارِقُ أطفالٍ . اتْبَعُـوهُ تَجِدُوني» ، فَدَقَّ قَلْبـه بسُرعة .

وَدَهِشَ ، ولمْ يدْرِ مـا يفعلُ ، فلم يكُنْ مَعَـه جِهازُ (الماشي - واشي) .

وبعـدَ لحظـةٍ من التَّرَدُّدِ ، وقف وانْسَحَبَ من خَلْفِ الـرجلِ دونَ أن يَـرَاه ، وأسْرَعَ نحـوَ قِسْمِ الشرطـةِ المركَـزِي ، مُسْتَعْمِـلاً لَوْحَهُ الدارجَ ليُسْرِع .

وعلى بابِه وجدَ شُرْطِيًّا واقِفًا فَصَاحَ به :

- وَجَدْتُه . . ! وجدتُه ، يا سيدي !

فَنَظَرَ إليه الشرطيُّ باستغراب وقال :

- ماذا تَفْعَل ، يا بني ، في الشارعِ في هذِه الساعة؟ هذا وقتُ الغَدَاء .

فأعَادَ عليه ما قَالَه أولاً:

- أرجوكَ يا سيدي ! لقد وَجَدْتُهُ ، وأخَافُ أن يُفْلِتَ !

- وَجَدْتَ من؟

- خاطف صابر، زميلي في المدرسة . وهو في مَخْدَعِ الهاتف يُكَلِّمُ والدَ صابر. أرجوكَ تعالَ معي . . .

- لا أستطيعُ مغادرةَ مكاني هذا . أنا مُكَلَّفٌ بالحراسَةِ هنا .

- ومن يأتي معي لِلْقَبَضِ عليه؟

- سَأبْحَثُ لكَ عن شُرْطِيٍّ يذهب مَعَك . ولكنْ كيفَ عَرَفْتَ أنه مُخْتَطِفُ زمِيلِكَ؟

- إنها مَكتـوبَــةٌ على ظَهْـرِه! على جِلْبَـابِــه المُشمَّع. تعـالَ وَسَتَرى. إنه قريبٌ من هنا. إنه في مَخْدَع الهاتف.

ولم يتحرَّكِ الشرطيُّ السمينُ، بل أخَـذَ يَنْظُرُ حَـوَالَيْه، ثُمَّ إلى داخِلِ المَرْكَــزِ وَيَتثَـاءَبُ ويُنَـادِي بِبَعْضِ الأسماءِ، غَيْرَ عَــابئ بِحَسْرَةِ الطفل الذي يحْتَرِقُ أمَامَه...

15

وَوَضَعَ المُخْتَطِفُ السَّماعَـةَ، وخرجَ من المَخْـدَع عائدًا نَحْـوَ سَيَّارَتِه .

وَمَـرَّ من أمـام المَقْهَى المجاوِرِ لِمَحَطَّـةِ البنـزين، فَتَبِعَـهُ رجلٌ عـريضُ الأكْتَـافِ، قَـوِيُّ العَضَـلاتِ، كـان يأكُلُ شَطِيرَةً، فَلاَحَظَ مـا كُتِبَ على ظَهْرِه، وقَامَ لِيَقْرأهُ. وحينَ قَـرَأهُ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِنْدِيلاً، واسْتَوْقَفَ الرجُلَ قائلاً:

- اسْمَحَ لي، يا عَمِّي. دَعْنِي أمْسَحُ ظَهْرَ جِلْبَابِكَ من وَسَخٍ غَريبٍ عَلِقَ بِه .

ووقَفَ اللِّصُّ يَنْظُـرُ إلى الشَّابِّ العِمْـلاَقِ بِتَرَدُّدٍ وَرِيبةٍ مُحَاوِلاً التَّخَلُّصَ منه بقولِهِ :

- لا دَاعِيَ لتَوْسِيـخِ مِنْدِيلِك. فَهَذا جلبـابٌ مُشَمَّعٌ يَسْهُلُ مَسْحُه. شكرًا لك، شكرًا

ولَكِنَّ الشابَّ لَمْ يَـذْهَبْ، بَلْ وَضَعَ ذِرَاعَهُ القَـوِيَّةَ عَلى كَتِفَي اللِّصِّ، ومَشَى مَعَهُ هَامِسًا له :

- لاَ تَخَفْ. لاَ يَعْـرِفُ أحَـدٌ غيُرنا شيئًـا على الإطْـلاَق. كَمْ طَلَبْتَ من أبي الضَّحِيَّة؟

وَدَقَّ قلبُ المُخْتَطِفِ، وتَصَبَّبَ عليـه العَـرَقُ البـارِدُ، ووقفَ ينظرُ إلى الشابِ العريضِ، ويُفكِّرُ في طريقةٍ للتَّخَلُّصِ مَنه، ولَمْ يَسْتَطِعْ الإنْكَارَ فسأل:

- ولكنْ كيْفَ عَرَفْتَ؟

وابْتسمَ الشابُّ مُرْتَـاحًا لِوُقُوعِ الفَرِيسَةِ في فَخِّـه، كان سؤالُ المُخْتَطِفِ اعْتِرافًـا ضِمْنيا بِفَعْلَتِه. إذنْ عليـهِ أن يَسْتَغِلَّ المَوْقِفَ لِصَالِحِه أكبرَ اسْتِغْلاَل. فقال:

- إني أنْقَذْتُـكَ من اعْتقالٍ مُحَقَّقٍ، يـا مِسْكين. كان مكتـوبًا على ظَهْرِكَ: «سارِقُ أطفَالٍ اتْبعُوهُ تَجِدُوني» هل عَرَفْتَ ذلكَ؟

وحـاوَلَ المختطِفُ رؤيـةَ الكِتَـابَــةِ بـالالْتِفَـاتِ إلى الخَلْفِ، فَطَمْأنَهُ الشاب:

- لا تقلقِ الآن. لقـد مَسَحْتُها تَمامـا. فماذا سيكونُ جَـزَائي على إنْقَاذِك؟ ألاَ أسْتَحِقُّ حِصَّةً من الفِـدْية؟ عَلَى أيِّ حَالٍ، كَمْ طَلَبت؟

فنَظَرَ الخاطِفُ حَوَالَيْه ، وأجَابَ :

- لاَ يَنْبَغِي أن نتحدث في الشارع .

- أنتَ على حَقّ . أينَ نَذْهَب؟

- أعْرِفُ مَقْهًى صَغيرًا نتَكَلَّمُ فيه بِهُدوءٍ دونَ أن نُثِيرَ فُضُولَ أحَد .

- لِنَذْهَبْ إليه إذن .

وتوجَّهَ الاثنانِ إلى مَقْهى (البَيْدَرِ) بشارع (لُومُومْبَا) .

وَعَاد حسنٌ يَجُرُّ شُرْطيًّا كبيرَ السِّنِّ إلى ناحيةِ مَخْدعِ الهاتف . وحينَ لمْ يجد الرجلَ قال للشُّرْطيّ :

- لاَ بُدَّ أن يكونَ قريبًا من هنا . لا بدَّ أنه انْتَهى من المُكَالَمَة .

فحرَّكَ الشرطيُّ رأسَه :

- أخْشَى أن تكُونَ تَخَيَّلْتَ كلَّ هـذا . فَمَنْ هـذا الـوَلَـدُ المَخْطُوف؟

- إنه صابر ابن الدكتُور نُورِ الدين خَليل . هل تعرفُه؟

- نعم . أعرفُه جَيدًا . ولكن لماذا لمْ يُخْبِرْنا باخْتِطافِ ابنهِ؟

- الأمرُ واضِح. إنه يَتَفَاوضُ مَعَ اللِّصِّ.

- سَوفَ أكلِّمُ الدكتورَ بالهاتف. فإذا كنتَ تكذبُ عليَّ فَسَأشْكُوكَ لِمُعَلِّمِكَ، سَمِعْتَ؟

وبَرَقَتْ عَيْنَا حسن فَجْأةً، من خلفِ نَظَّارَتِه السَّمِيكَةِ، وصاح:

- هناك! انظر!

- صاحِبُ الجِلْبابِ المُشَمَّع؟

- نعم.

وَسَحَبَهُ مِن يَدِه خَلْفَه:

- سَتَرَى مكتوبًا على ظهرِهِ: «هذا سارِقُ أطْفالٍ، اتْبَعُوهُ تجدوني».

وأسرعَ الشرْطِي خلفَه حتى لم يَبْقَ بينَهُما وبينَ الرجلين إلا مسافةُ ثلاثَةِ أمتارٍ. وحاولَ حسن أن يَقترِبَ أكثرَ ليرَى الكِتَابَةَ فلم يجدهَا.

وتوقَّفَ الشرطيُّ خَائِبَ الأمل:

- أينَ الكتابةُ التي قُلْتَ عنها!

- لا أدري ماذا وَقَعَ لها . لا بدَّ أنهُ مَسَحَها .

فتوقَّفَ الشرطي . وأمسَكَ بكتفي حسن وقال :

- أتَعْرِفُ مـا يَجِبُ أن تَفْعَل؟ اترك عملَ الشرطـةِ للشرطةِ ، واذهب أنتَ للغداءِ والمدرسة !

وَتَـرَكَه فـاتِحًا فَمَـهُ يُشيرُ إليـه مَرَّةً ، وإلى اللِّصِّ بـإصْبعِه مـرَّةً أخرى ، وقَفَلَ راجعًا إلى المَرْكَز.

وَقَـرَّرَ هو أن يتْبَعَ اللِّصَّ أيْنَما ذهب . فَـرَكِبْ لَـوْحَه الـدارجَ وتَظَاهَرَ باللعبِ ، وهو يُراقبُ الرجلين من بعيدٍ من الخلف .

وحينَ دَخَلا المقهَى مَرَّ بجانبـه مرَّتَيْن ليتأكدَ من أنهُما جلسا ، وذهبَ مُسْرِعًـا إلى حيثُ كـان محسنٌ ينتظرُ أخْبـارَ الجماعـةِ على (الماشي- واشي) .

وحينَ رآهُ أمْسَكَ بيدِه وَسَحَبَهُ بقوة :

- تعالَ . . تعالَ . . لقد وجدتُه! أسْرِعْ قبلَ أن يُفْلِت!

وأسرَعَ الاثنانِ نحوَ المقهى . وتوقَّفَ هو. وقال لمُحسن :

- انظرْ بالداخل . هناكَ رَجُلٌ بَدَوِيٌ عَجُوز، وشابٌّ عريضٌ

الكَتِفَيْن. الخاطِفُ هو العَجوز. رَأيتُ كتابةَ صابرٍ على ظَهْرِهِ بعينيَّ. ولكن يظهرُ أنَّ صاحِبَه رَآها. وَمَسَحَها.

ومرَّ محسنٌ ببابِ المَقْهَى فَرَأى البدوِيَّ العجوزَ يتوجَّه إلى المِرْحاض. فعادَ إلى حسن وقال له.

- قف أنتَ هنا. إن اللصَّ ذاهبٌ إلى المِرْحَاض، وسوفَ أدورُ حَوْلَ المَبْنَى، لأرَى هل للمِرْحاضِ نافِذةٌ يمكنُهُ الهروبُ منها.

وقبلَ أن يتحرَّكَ، فَتَحَ هَوَائي (الماشي - واشي) وأرسَلَ نِداء عَامًّا:

- إلى جميع أفراد (عملية صابر)، هل تسمَعُونَني؟ حَوِّلْ. إلى جَمِيع أفرادِ (عملية صابر)، هل تسمعونَني؟ حَوِّل.

وانتظَرَ قليلاً، فإذا أصواتُ أربعةٍ من الأولادِ تزدَحِمُ على جِهازِ الاسْتِقْبَال:

- سمعنا. حوِّل.

- وَجَدْنَا الهَدَف. تعالوا جميعًا إلى مقهى «لاغْرانج». حَوِّل.

- حالا! حالا! اقْفِل.

ودخَلَ محسنٌ دربًا ضَيِّقًـا طويـلاً فإذا بِرَجُلٍ أصْغَـر سنًّا من البَدَوِي يَنْزِلُ، ويطلِقُ سَاقَيْهِ للرِّيح.

وَأطَلَّ محسنٌ من نافذةِ المرْحـاضِ فإذا جِلْبَابُ اللصِّ الصُّوفيُّ والمشمعُ، واللِّحْيَةُ والعِمامَةُ مُكَوَّمَـةً على أرْضِهَا، فتأكَّدَ من أنَّ الـرجلَ الهاربَ هـو اللصُّ الخاطِفُ، فعَـادَ بسرعـةٍ إلى حسن، وطلب منه أن يتْبعَهُ في مطارَدَةِ اللصِّ الهارِب. . .

وجرى الاثنان خَلفه، ومحسنٌ يتكلَّم في (الماشي - واشي):

- إلى جميع قـواتِ (عَمَليـة صابـر)، الهدفُ هَـارِبٌ في اتجَاهِ شَارِعِ (عَبْدِ الرحمن انجاي) هل تسمعونني؟ حَوِّلْ.

وجاءت أصواتُ الجماعة:

- سَمِعْنَـاك. سَنَعْتَرِضُ طَريقَـهُ من جِهـةِ (ساحـة الوحـدة الأفريقية). حول.

وانْحَرَف اللصُّ فجأةً إلى زَنْقَةِ (مولاي حفيظ) في اتجاهِ شارعِ (عنَّابَة).

ومن شارعِ العَلَوِيِّينَ وشارِعِ الجَزَائِر وساحةِ الجُولان، كانتْ أفْوَاجٌ من التـلاميذِ تتحرَّكُ كالجَرَادِ في اتجاهِ شارع عَنَّـابَة، مِنْهُم من يَـدْرُجُ على الألْواحِ الـدارِجَة، ومنهم من يَجْرِي بكل قـواهُ، ومنهم من رَكِبَ الـدرَّاجَـاتِ، والـدراجـاتِ النَّـارِيـةَ، وعلى ظُهورِهـم محافِظُهم المدرسيةُ.

كـانت الجماعةُ الأولَى قـد التَقَتْ تـلاميذَ المَدَارِسِ المجـاوِرَةِ وأخْبَرَتْهُم (بعمليةِ صابر) فانْضَمُّوا إليهم أفواجًا.

وخرج المختطِفُ مُتَوَجِّهًا نحوَ سَيَّـارَتِه. وأخرَجَ المِفْتَاحَ من جَيْبِهِ ليفتحَ بابَها، فـاقتَرَبَ منه محسنٌ بِسُرْعةِ البَرْقِ، وخَطفَ منـهُ المِفْتَـاحَ، وابْتَعَـدَ على لَــوْحِـهِ الـدارِجِ في اتجاهِ (سُـوقِ الزهور).

وكانَ فوجٌ من التلاميذِ قادِمًا في وَجْهِه فأشَارَ لهم إلى اللِّصِّ:

- هَاهُوَ مُخْتَطِف صَابر، حاصِرُوه! لا تَدَعُوه يُفْلِت!

وَفُوجِئَ اللصُّ بِمَوْجَـة الأطفالِ قادمةً صوبه فَـارتَدَّ على عَقِبِهِ مُتَوجِّهـا نَحْوَ (ساحة الـوحدة الأفريقية) فَإِذَا أمـواجٌ أخرَى من الأطفالِ والغِلْمَانِ تُغْلِقُ طَرِيقَهُ تمامًا، وتَمْنَعُهُ من التحرُّك...

وكان رجـالُ الشرطةِ قد لاحَظُوا حـركَةَ الأطفالِ غيرَ العـادِيةِ فتبعُوهم على الأقدامِ وبالسَّيَّارَات.

وتـدخَّلوا لإنقـاذِ اللصِ الـذي كـادَ يَفْتِكُ بِـه الصغارُ لـولا صِيَاحُ محسنٍ وبقيةِ رِفَاقِه:

- لا تضربوه! نحتاج إليه لمعرفة مكان «صابر»!

وعلى جانبِ الطـريقِ وقفَ الشابُ العـريضُ الكَتِفَيْنِ يَتَفَرَّجُ على أسْرَابِ الأطْفالِ تَمْلأُ الشـوارعَ. ورآه حسن، فقال لمحسنٍ مُشِيرًا إليه:

- هذا صـاحِبُه! كانـا معًا في المَقْهى. يجبُ ألاَّ يُفْلِتَ، وإلاَّ ضَاعَ صابر...

وَوَقفَ محسنٌ وسَطَ جَمَاعَتِه مُشيرًا إلى الرجلِ العِمْلاقِ:

- هذا صاحبُ المُخْتَطِف! لا تَتْرُكُوه يُفْلِت!

واجتَمَع عليـه التـلاميـذُ، يَضْرِبونَ على ظهـرِهِ بِـألْـوَاحِهِم وَعَجَـلاتِهم الحَدِيـدِية، وهـو يُحَاوِلُ الإفـلاَتَ، دونَ جَـدْوَى. وقبض عليـهِ رجالُ الأمنِ، هـو أيضًا، وهـو يحاوِلُ جَاهِـدًا أن يَتَبَرَّأَ من فَعْلَةِ صاحِبه، ولا من يسمعه!

وقَيَّدَهُمَا رجالُ الأمنِ، وساقُوهُمَا إلى المركز بَيْنَ هتَافِ التلاميذِ وتَصْفِيقهم. وفي المركـزِ نَـزَعُـوا عَنْهُما القيودَ، وَوَضَعُـوهُما معًـا داخِلَ غُـرْفَـةٍ صغيرةٍ في انتظـارِ قـدومِ الضَـابِطِ المُكَلَّفِ بالاسْتِنْطَاق.

16

وفي الغُـرفـة المُعْتِمَـةِ تَـوَجَّـه الـرجلُ العَـريضُ الأكتـافِ إلى المُخْتَطِفِ حَانقًا، وقال:

- هل ستقولُ لهمْ إنني لَسْتُ معك؟

فَلَمْ يُجِبْـهُ اللصُّ الذي كـان ساهِمًا يفكّـرُ في مَصيرِهِ المُظْلِم. فأمْسَكَ بِتَلاَبِيبِه وَصَاح:

- تكَلَّمْ يا وَجْهَ الوَيْلِ! أنـا بَرِيء! أنا لَمْ أُشَارِكْكَ في عَمَلِيَّتِكَ المَقيتَة! تكَلَّم!

فَنَظَرَ إليه اللصُّ بعينين حَمْرَاوَيْن، وقال:

- لا تَخَفْ. لا تخف.

فَأَطْلَقَ اللِّصُّ العِمْـلاقُ سَرَاحَـه، وعَادَ يجلِـسُ على كُرْسِيِـهِ الخَشَبِيِّ، ويَحْدِجُهُ بنَظَراتٍ حَاقِدَة، ويَشْتُمُه بَيْنَ أسْنَانِه.

ونَظَـرَ إليـه اللصُّ بِشِبْه ابتسـامـةٍ شـاحِبةٍ، وقـالَ بصـوتٍ خافِت:

يا طامِعًا في مَزيدٍ   حَذارِ من نُقْصانِ

فالْتَفَتَ إليهِ الآخرُ سَائِلاً بِعُنْف :

- ماذا قُلتَ ؟

- لاَ شيء. لا شيء بالمرة.

وانْفَتَحَ عليهِمَا البابُ، وطلبَ الحارِسُ منهما الخروجَ، فَتَبِعَاهُ إلى مكتبِ المُحَقِّقِ. وهناكَ اعْتَرَفَ اللِّصُّ بأنه خَطفَ صَابرًا، وطَلَبَ من وَالِدِهِ فِدْيَةً، عشرةَ مَلاَيين سَنْتيم، وبِأَنَّ صابرًا يوجدُ سجينًا عندَه في دارٍ مَهْجورةٍ بغابةِ المَعْمُورَة.

وسألَه الضابطُ :

- هل هذا شَريكُكَ في عمليةِ الاخْتِطَاف!

فَنَظَرَ الخَاطِفُ إلى العِمْلاَقِ البَشَرِي بِتَحَدٍّ كَبيرٍ، وقال للضَّابِط :

- طبعًا! نحنُ شَرِيكَانِ في العملية...

وهُنا استَشَاطَ الشابُّ غَضبًا، وارْتَمَى على اللصِّ، فأمسَكَ بِصَدْرِه، وَأَخَذَ يَنْطَحُهُ والآخَرُ يَسْتغيث.

وبَعْدَ عِرَاكٍ طَوِيلٍ اسْتَطَاعَ خَمْسَةٌ من رِجالِ الشُّرْطَةِ الفصْلَ بينهما. فَأَمَرَ المُحَقِّقُ بِسجْنِ المُعْتَدِي، وَطَلَبَ سَيَّارَةً لتأْخُذَهم إلى الغابَةِ للعودَةِ بِصابر.

17

وعَلَى بَابِ المَرْكَزِ كانَ وَالِـدَا صابِـرٍ يَخْرُجَانِ مـن سَيَّارَتِهِمَا ، فَتَقَدَّمَا إلى الضـابِطِ المكلَّفِ ، وعَرَّفَاهُ بنفسيهما ، فطلبَ منهما أن يَتْبَعا مَوْكِبَهُ إلى الغابة .

وَحينَ وَصَـلاَ إلى الدار المهجـورَةِ فَتَحَ اللصُّ البابَ ، ثُمَّ بـابَ الغُرْفَة ، فَخَرَجَ صابرٌ مُنْـدَهِشًا لامْتِلاَءِ الدارِ المَهْجُورةِ عليه فَجْأَةً برجالِ الأمن ، وَمَعَهُمْ مُخْتَطِفُهُ دَامي الوَجْهِ ، مُكَبَّلاً بالحديد .

وَتَقَـدَّمَ أَبُـوهُ وأُمُّـهُ فارْتَمَى هُـوَ بَيْنَ أَذْرعهما ، وفـاضَتْ عُيُـونُ الجَميعِ من التَّأَثُّرِ لِلْمَنْظَرِ.

وَبَكَى المُخْتَطِفُ هو الآخرُ وأخَذَ يُرَدِّدُ :

- أنا تَـائِبٌ إلى الله ! لَنْ أعُودَ إلى هذِه الفعْلاَتِ الشَّنِيعَـة ! أنا مُجْرِمٌ حقير! وأسْتَحقُّ كلَّ عقَاب !

فواجهه صابر، وهو يمسح عينيه وقال :

- كذبت ، وصدقت !

فَنظر إليه الحاضرون باستغراب ، فشرح قولته المتناقضة :

-كذب حين قال إنه تاب، وأنـه لن يعود لفعلاته الشنيعة، وصدق حين قال إنه مجرم حقير، ويستحق كل عقاب!

فقالت أمُّهُ وهي تعضُّ على شفَتِها السُّفْلَى مُؤَنِّبَةً:

- صابر!

فقال صابر:

- أنا أعرَفُ به منكم جميعًا! ورغم ذلك فإني أشكُره.

وزاد استغرَابُ الجماعةِ لِكَلام صابرِ. وكان المُخْتَطِفُ أكْثَرَهُمْ اسْتِغْرَابًا، فَلَمْ يَتَمَالَكْ أنْ سَأل:

- علَى ماذا، يَا ولدي؟

- على الدرْس الذي علَّمْتَنِي. إنني لَنْ أنْسَاهُ مَدَى حَيَاتي...

فـابتسمَ المُخْتَطِفُ آمِلاً أن يَسمعَ كلمـةَ ثناءٍ تُخَفِّفُ العقـابَ علَيه، وسأل:

- أي دَرْس، يا صابر؟

- ألَّا أنْسَاقَ وَرَاءَ شَهَـوَاتِي، وألَّا أثِقَ بِمَنْ لا أعْـرِفُهُمْ مِنَ النَّاس. وفَوْقَ كُلِّ هَذَا أنْ أعْمَلَ بِنَصَائِحِ وَالِدَيَّ وَمُعَلِّمِي، وأنْ أسْتفيدَ من تَجارِبِ غيري.

فَوَضَعَ عميدُ الشُّرْطَةِ يدَهُ على رَأْسِ صابِرٍ، وقال :

- عافَاكَ ، يا وَلَدي ! لَمْ تَذْهَبْ تَجْرِبَتُكَ القَاسِيةُ سُدًى .

ومَدَّ الدكتورُ نُورُ الدين خَلِيل يَدَهُ إلى الضَّابِطِ مُصافِحًا :

- لا أدْرِي كيفَ أشكُرُكَ ، ياسيدي !

- على ماذا ، يا دُكْتُور خليل ؟

- على إنقاذِ وَلَدي طَبْعا !

فَحَرَّكَ الضابِطُ رَأْسَهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ ، وقال :

- إذَا كانَ أحَدٌ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ فَهُوَ صابر؛ فَهُوَ الذِي أنْقَذَ نَفْسَهُ بِنَفْسِه بتلكَ الحيلَةِ الذَّكِيَّةِ التي نَبَّهَتْ أصْدِقَاءَهُ إلى المُخْتَطِف . وَبَعْدَ صَابر يَأتي أصْدِقَاؤُهُ وَزُمَلاَؤُهُ في المَدْرَسةِ الذينَ سَاعَدُونَا في القَبْضِ على المُجْرِمِ .

وَتَدَخَّلَ صَابر مَرَّةً أُخْرَى ليقولَ مُشيرًا إلى المُخْتَطِف :

- ولا نَنْسَى أن نُقَدِّمَ الشُّكْرَ لهذا ، كَذَلِك . . .

فنظرَ إليْه المُختطِفُ ، مُتَوَقِّعًا إهَانَةً أُخْرَى ، وسأل :

- عَلَى ماذا ، هَذِه المَرَّة ؟

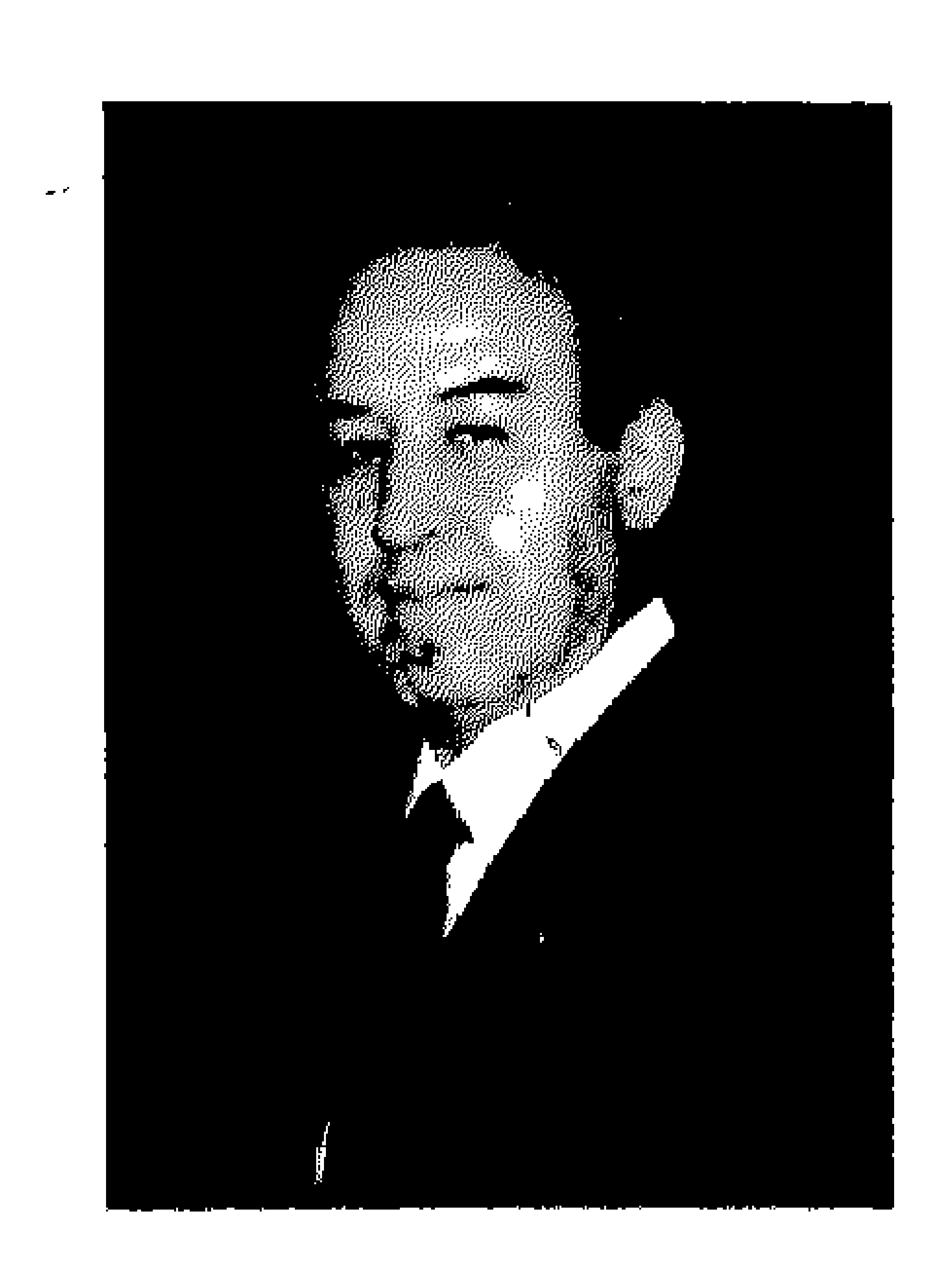
فَرَدَّ صَابر:

- عَلَى وَصْفِكَ لِي «بـالمُغَفَّلِ» . . ! فَلَـوْلاَ ذَلِكَ لَمَا فَكَّـرْتُ في تلكَ الحيلَةِ لِلإفْلاَتِ من قَبْضَتِك . فَمَنْ مِنَّا المُغَفَّلُ الآن؟

فَعَضَّ اللِّصُّ عَلى لِسَانِهِ مُغْتَاظًا ، وقال :

- يَا لَكَ مِنْ مُغَفَّلٍ مَاكِر!

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء [illegible] المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض[illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الـ[illegible] الحديثة للشباب في العالم العربي.

مكتبة